المقتطف

الجزء الثالث من المجلد السادس عشر بعد المئة

١ مارس سنة ١٩٥٠ ١٢ جمادى الاولى سنة ١٣٦٩

العدم

هذه هي الكلمة التي لا يعنى بها شيءٌ ، أو يتعذَّر عليك أن تفسرها فلا تقول هي اللاشيء ، أو اللاَّوجود ، هذا التعريف لا يفسرها ، ما هو إلاَّ لفظ مرادف للفظ آخر . فكأنك تفسر الماء بعد الجهد بالماء . فإذا كنت لا تظفر بالمعدوم أو بالعدم فيستحيل أن تظفر بمعناه كشيء قائم بنفسهِ . لا يمكن أن تجد شيئاً أو لفظاً أوضح من العدم لكي تفسره به .

يمكننا أن نمثل العدم أو المعدوم بشيء كقولك إن ما بين الحدَّين يمثل عدماً ، هبْ أن خطين متلاصقين ، أحدهما أحمر والآخر أصفر . فالحد بينهما لا هذا ولا ذاك ، ولكنه يفصلهما . فهذا الحدّ ليس عدماً . فهو موجود لأنه فاصل بين الجانبين ، وهو غير موجود لأنه لا من هذا ولا من ذاك .

قد تقول أنه فراغ بين الإثنين كقولك فراغ ضئيل جدًّا بين قدّتين ، أو بين مسطرتين متطابقتين . ولكن المفروض أن القدّتين ملتصقتان متطابقتان ، لا فراغ بينهما البتة . ولكنهما متمايزتان بلونيهما المختلفين . فالحدّان لا يحدّان عدماً . والعدم ليس له وجود . وبالأحرى العدم ليس غير الموجود . أو أن غير الموجود ليس عدماً بل هو ردفٌ له .

كذلك الأمر في لوحين متطابقين مختلفي المادّة كقولك لوحٌ من الماس ، وآخر من جاج ، يعربهما أحدهما عن الآخر نور فاصل بينهما . ولكن الفاصل لا يشغل حيزاً بينهما لى اعتبار أنهما متطابقان تمام التطابق . فسطح الواحد ليسَ من سطح الآخر . ولكن ليس الإتصال بينهما عدماً . ينتقل النور من الزجاج إلى الألماس من غير أن يمرَّ في عدم .

(البقية في أسفل الصفحة التالية)

ما يعرف وما لا يُعرف

ليس للعقل من وسائل لمعرفة ما هو خارج عنه إلاَّ الحواس الخمس . وأهمها البصر ، فالسمع ، ثم اللمس ، فالذوق ، فالشم ، والأخيران قليلا الأهمية ، والأول أهمها ، والثاني يليه بالأهمية.

وهذه الحواس التي هي في أطراف الجهاز العصبي المتجمّعة مصادرهُ في الدماغ تتفاعل مع العوالم الخارجية مباشرة ، فتنتقل انفعالاتها للدماغ حيث تتصرف بها خُلَيّات المراكز الدماغية المصدرة الأفعال العقلية . (ولهذه الأفعال العقلية بحث خاص في سيكوفسيولوجية الدماغ) . وتسهيلاً للتعبير تسمى مجموعة الأفعال العقلية « العقل » Mental

قلنا أن الحواس تتفاعل مع العوالم الخارجية مباشرةً : — الجهاز البصري ينفعل بما يصدم شبكية العين من الأمواج النورانية (الإيثرية) . والجهاز السمعي ينفعل بما يصدم طبلة الأذن من الأمواج الصوتية الهوائية. والجهاز اللمسي ينفعل بما يصدم سطح الجسم

قد يمرُّ النور في فراغ كما يتراءى لك ، ولكن الفراغ ليس عدماً . قد يلوح لك ان الحيز الذي بيننا وبين الشمس عدم والنور يمر فيه . والحقيقة أن هذا الفراغ بيننا وبين الشمس ليس فراغاً مطلقاً وإلاّ ما عبره النور ، بل هو بحر أيثري أو بحر فوتونات أو ضويئات متموجة والنور يسير فيها بتموجها . فليس في الفضاء عدم أو فراغ مطلق . أجل بعد الحيز الكوني الأعظم الذي تسبح فيه الأجرام كلها فراغ لا نعلم إن كان عدماً أو تشغله أشياء أخرى .

سألني أحد المفكرين إذا كانت النقطة الهندسية ، كما يقول تلاميذ اقليدس ، وهمية ، فكيف يمكن أن تنقسم إذاً ، لأن المفروض انها مهما كانت صغيرة ودقيقة فهي ذات ثلاثة أبعاد ، فاذاً تنقسم الى ما لا نهاية له . فهل تنقسم ؟

وجوابي إذا كنت تفرض أن النقطة ذات ثلاثة أبعاد فما هي وهمية . وإذاً فهي تنقسم. واذا كنت تفرض انها ليست ذات ثلاثة أبعاد ولا تشغل حيزاً وإنما هي في مقام النقطة فهي وهمية فعلاً ، فلا تنقسم.

من الأجسام المادية مباشرة . والجهاز الذوقي بما يصدم جدران الفم من المواد الغذائية وغيرها مباشرة أيضاً . والجهاز الشمي بما يصدم جدران الأنف من ذرات كثير من المواد المتطايرة على اختلاف أنواعها .

ويقول بعضهم بحاسة سادسة، وهي الإحساس بالحرارة . وبحاسة سابعة وهي الإحساس بالثقل (الجاذبية) . فلا بأس بهذه الحواس الاضافية .

ان توسل العقل لاستطلاع العالم الخارجي بوسائل آلية كالميكروسكوب والتلسكوب والسبكتروسكوب والالكتروسكوب والترمومتر والبارومتر والى غير ذلك من الأدوات التي تتوسط بين الحواس والمواد المحسوسة، لا ينفي أن الحواس تنفعل « مباشرةً » بالعالم الخارجي كما يتضح ذلك للمستبصر بأقل تفكير . الميكروسكوب نفسه لا يرى . فلا غنى له عن العين ، والمسماع لا يسمع فلا غنى له عن الأذن، وهكذا .

قد تتفاوت الحواس في التأثر من التفاعل بمصادمات العالم الخارجي لتفاوتها في قدر الانفعال (وبعبارة مألوفة : في قوة الاحساس) فقد يرى هذا ما لا يراه ذاك . وقد يسمع حيوان ما لا يسمعه إنسان . والكلب يشم ما لا يشمه إنسان . وبعض الحشرات تتأثر بالأمواج الضوئية والصوتية وغيرها أكثر مما يتأثر بها غيرها . حتى ان بعض الباحثين يعتقد أن لبعض الحيوانات والهوام حاسةً أو حواس أخرى غير الحواس الخمس . ولكن ليس لهذا الاعتقاد أساس علمي راهن . ما هو إلاَّ ظن تزعزعه نظرية التفاوت بين قوى الاحساس المشار اليها آنفاً .

ولا ندري إن كان للحيوانات حواس أخرى غير هذه الحواس الخمس . ولبعض الحواس آثار في النباتات التي تنفعل بالنور وبعضها تنفعل باللمس .

بغير هذه الوسائل لا يتصل العقل (أو المراكز العقلية الدماغية) بالعالم الخارجي ولا يدرك شيئاً من صوره وخواصهِ .

يفهم العقل أشياءً كثيرة من طبائع العالم الخارجي بمعالجة ما يطلع عليه بواسطة الحواس من خواص ذلك العالم . وذلك بعمل القوى العقلية : التصوُّر، والتذكُّر، والتخيُّل، والاستدلال، والاستنتاج الخ . فمعرفة العقل أدق ذرّات المادة كالذرَّة، والكهرب، والبروتون، والفوتون، وأبعد اجرام المادة كالعناصر الكيمية في الشمس والنجوم، وأبعاد الاجرام وسرعاتها وقياس الأكوان الى غير ذلك مما انطوى في دوائر العلم الحديث — كل هذا هو من قبيل تفهم العقل لكثير من طبائع الكون بفعل القوى المشار اليها . ولكن ما خرج هذا

التفهم عن دائرة التوسل اليه بالحواس التي استهللنا بها هذا المقال . فلا يمكن أن يعرف العقل شيئاً، أو ان يتفهم شيئاً، أو يستنتج شيئاً ، إلاّ اذا كان لما يفهمه أو يستنتجه صور عقلية رسمتها المحسوسات فيه بواسطة الحواس .

اذا كانت هذه الحواس تتفاعل بما يصادفها من فواعل العالم الخارجي فلا نرى سبباً لنشوئها الاّ هذا التصادم بتكراره على تمادي الزمن كما هو معلوم بيولوجياً . فما صارت العين عيناً إلاّ من فعل أمواج النور على طرف العصب . وما صارت الأذن أذناً إلاّ بفعل أمواج الصوت، وهكذا دواليك . وكذلك ما صار العصب بصرياً أو سمعياً الخ الاّ بفعل ذلك التصادم . وكذلك أيضاً ما نشأت تلك المراكز العقلية في الدماغ الاّ بفعله أيضاً .

فاذا شئنا ان نفهم خواص العالم الخارجي نعود الى دراسة هذه الحواس التي نشأت بفعل تلك الخواص . فالبصر مثلاً أرشدنا الى أن للمادة خاصة النور ، والآلات التي استنبطناها لتحليل النور أرشدتنا أخيراً الى أن هذا النور هو أمواج (أثيرية أو فوتونية) صادرة من الجسم المنير . ثم ان الآلات التي اخترعناها لمعرفة أسباب هذه الأمواج قادتنا بالاشتراك، مع وسائل أخرى ، الى معرفة (أو فرض) تكوُّن المادة من الكهرب وأخيه الكهيرب . بهذا المثل وبغيره من الأمثلة فهمنا أن من خواص المادة أولاً خاصة الجذب أو التجاذب . وثانياً خاصة الدوران حول محور ، وثالثاً التجمع والتكتل . ورابعاً التفرق والتشتت (الاشعاع). هذه هي خواص المادة الرئيسية . وتتفرّع منها خواص أخرى عديدة كالأبعاد الثلاثة (الحيز) والحركة (الزمن) والثقل والصلابة والمرونة والجمود والسيولة والغازية ووالخ مما نعرفه ونحس به، والحلاوة والمرارة والروائح المختلفة والألوان والأنغام

كل هذه الخواص أنشأت في الحي الحواس وأعصابها بفعل التصادم بينها وبين بدنه. وهنا نقف أمام قضية ذات شأن عظيم وهي : هل للعالم الخارجي خواص أخرى غير الخواص التي ندركها بواسطة حواسنا هذه ؟

لو كان للعالم المادي خواص أخرى غير ما نحس به مباشرة أو بمساعدة الآلات التي استنبطناها، لكانت هذه الخواص الأخرى قد أنشأت فينا حواس أخرى نحسها بها . إذن ليس لنا أن نفرض خواص أخرى لا نحس بها بوسيلة من الوسائل . ليس للكون المادي من خواص غير ما شعرنا به وعرفناه . ولا موجب للبحث عن خواص أو طبائع أخرى غير ما علمناه . ولا معنى لفرض طبائع أخرى لانستطيع أن نبرهن على وجودها ، أو نثبته بطريقة من الطرق التي هي ضمن دائرة ادراكنا الحسي والعقلي .

إن خواص الكون هي التي خلقت بنا مشاعرنا التي نحسها بها . فما دام ليس لنا حواس أخرى غير حواسنا، فالمعنى أنه ليس للمادة خواص غير ما عرفناه فيها .

***

لا ينبغي أن يفهم من قولنا هذا اننا عرفنا كل شيء فلا يجوز أن نبحث عن شيء آخر . لا . بل لا نزال نجهل أموراً أخرى كثيرة . ولكن عندنا لهذه المجهولات التي لا نزال نجهلها أطرافاً من المعلومات تتصل بها . ولذلك نؤمل أن نتوصل إليها بمعالجة هذه المعلومات . مثال ذلك : نجهل سرّ الحياة . ولكننا نعلم أن في الوجود شيئاً نسميه حياة، وأصبحنا نعلم كثيراً من تصرف الحياة في الجسم الحيّ . بيد أننا لم نزل نجهل سر نشوء الحياة . ولعلنا بعد توالي البحث والامتحان والإختبار العملي نصل الى ذلك السر . لذلك يجوز لنا أن نقول أن هناك مجهولاً لا نزال نجهله لأن لنا علماً بأمور تخصه . أو أن معلومنا ينقصه معرفة ذلك المجهول . هذا ما يصح أن نسميه مجهولاً من المجهولات لأنه متصل بمعلوم من المعلومات .

ومثل ذلك « سرّ العقل » لقد عرفنا كثيراً من تصرفات القوى العقلية وحصرنا كثيراً من قوانينها ، ولكننا لا نزال نجهل سر حقيقة العقل ونشوء قواه من خليّات الدماغ . فهذا مجهول من المجهولات نؤمل أن يكتشفه حفداؤنا بعد زمان طويل أو قصير . هذا مجهول يتصل طرفه بكثير من معلوماتنا العقلية والفزيولوجية فنسميه مجهولاً .

وأما أن نفرض مجهولاً مطلقاً لا صلة لهُ بعلم من معلوماتنا البتة ، كأن نقول مثلاً إن في الوجود كائناً شبه الحيوان ويحمل الكرة الأرضية على قرنيه، فهذا فرض لا يرتكز على شيء من معلوماتنا التي تنقضه نقضاً تامّاً .

أو أن نفرض أن على الأرض عالماً يشبه عالم الإنسان ولكنه ليس الإنسان بتاتاً . ونسميه عالم الجن. وليس عندنا من المعلومات ما يرشدنا الى وجود هذا الجن (كما يصفونه) حقيقة .

أو أن نفرض أن في الفضاء عالماً تقيم فيه طائفة الملائكة كما وُصفت لنا ، أو عالماً آخر تقيم فيه طائفة الشياطين كما صوّروها لنا ، وليس عندنا معلومات بتاتاً تتصل بهذين العالمين . وليس ذلك فقط، بل ليس لحواسنا ما يقدرها على الإحساس بهذه العوالم المفروضة الموهومة .

وبعض الناس يزعمون أنهم يحسون بظاهرات عديدة مختلفة تؤيد ظنهم بوجود الجن والأرواح الشريرة وأرواح الموتى ونحو ذلك . على أن المفكرين الباحثين فحصوا هذه الظاهرات فحصاً دقيقاً ودرسوها دراسة علمية فثبت لهم أنها ليست إلاّ أوهاماً في أذهان زاعميها ، وليس لها وجود في العالم الخارجي مطلقاً . بناء عليه يجب ألاّ نصدق شيئاً من الخرافات والترهات . ولا يجوز لنا كذوي عقول أن نقول لا يحق لنا أن ننكرها بحجة أننا نجهلها .

إذا فتحنا باب الفروض بحجة أننا نجهل أموراً كثيرة وقلنا أننا لا نستطيع أن ننكرها بدعوى أننا نجهلها — أعني أنه لا يجوز لنا أن ننكر وجود ما نجهله — اذا فتحنا هذا الباب ساغ لنا أن نفرض ألوف الفروض المجهولة ونأبى على كل انسان أن ينكر هذه الفروض بحجة أنه يجهلها .

لنا مما تقدم أننا لا نسلم بوجود شيء في الوجود غير واقع تحت حواسنا لا مباشرة ولا بواسطة أدوات خاضعة لحواسنا ، ولا هو ذو صلة بمعلوماتنا البتة .

على أن هناك مجهولات تتصل بشيء من معلوماتنا ومع ذلك يستحيل علينا أن ندركها مهما أنعمنا النظر فيها . وهذه المجهولات تنطوي في قضايا رئيسية طالما صادمتها عقول الفلاسفة فعادت عنها عاجزة .

أولاً : السرمدية الزمانية — اللابداية واللانهاية .

ثانياً : اللانهاية المكانية .

ثالثاً : السببية . السبب الأول أو العلة الأولى .

رابعاً : الوجود والعدم .

هذه مجهولات يقف العقل أمامها حائراً ذاهلاً ويرتد عنها صريعاً . والأرجح أنه سيبقى عاجزاً عن ادراك أسرارها مهما ارتقى وتعالى . ولا ندري ان كان يتمادى في تطوره وارتقائه إلى أن يكشف هذه الأسرار .

لماذا ؟

لأنه هو جزء صغير في دائرة الكون . ومهما عظم وضخم وتعالى وتمادى ، لا يمكن أن تتسع دائرته بحيث تملأ دائرة الكون . بل لا تملأ إلاّ حيزاً صغيراً حول مركزها . هذا ان أجزنا القول ان الكرة الأرضية في مركز الكون .

إن ما عرفه العقل من أعماق المادة أي أدق ذرّاتها . ومن أقاصي مسابحها في هذا الفضاء الشاسع، اتصل به عن يد الأمواج الضوئية الصادرة من الاجرام والعوالم السحيقة، والذرّات الدقيقة بواسطة الآلات البصرية المختلفة المعظمة الأحجام والمقرّبة الأبعاد والمحلّلة الأضواء : — التلسكوب، والميكروسكوب، والسبكتروسكوب، والفوتوغراف، لخ. — فالعقل لم يغص إلى إعماق المادة ، بل ان دقائق المادة كشفت نفسها له عن طريق المجهر ، ولا هو سبح إلى أقاصي الكون لكي يرى تلك العوالم القصية ، بل ان أنوار تلك العوالم كانت رسلاً منها اليه عن يد المرصد والمرقب الخ .

* * *

جاءت المعرفة اليه بصور تلك الدقائق والعوالم القصية وهو مقيم في مكانه . بهذا الاعتبار يصدق فيه قول الشاعر .

وتحسب أنك جرمٌ صغيرٌ   وفيك انطوى العالم الأكبر

فعلى الرغم من تيسُّر إطلاعه على تلك الأعماق والأقاصي بهذه الوسائط المباشرة يستحيل عليه أن يدرك البداية والنهاية المكانيتين والزمانيتين ، لأنه محصور ضمن دائرة هذه البصريات التي تتناهى عند حدود ، حتى اذا طمح الى كشف ما وراء الحدود اصطدم باللاَّنهاية التي لا يستطيع تصوُّرها . وان فرض لها حدوداً أخرى وراءها عاد يطمح إلى كشف ما وراء حدودها فيعود يصطدم باللاَّنهاية مرّة أخرى، فيرتد عاجزاً عن الاستكشاف كما أنه يرتد أيضاً عاجزاً عن تصوُّر غير المتناهي .

فالعقل مقيم في جمجمة تقاس بشبر مكعب . وهي مقيمة في عالم ممتدّ حولها ربوات ربوات ملايين ملايين أضعاف قياسها . فكيف يستطيع الشبر أن يحتوي ربوات الأشبار . ولولا تحرك المادة، واشعاع حركاتها أمواجاً متسارعة ، وانفعال المراكز الدماغية بصدمات تلك الأمواج الطارئة عليها على غير قصدٍ منها — لولا هذا التفاعل الذي تتعمَّده الطبيعة ما علم العقل شيئاً من أغراض الكون وتصرفات ذرّاته وحركات أجرامه .

لذلك يقف العقل حاسراً لدى بحر الوجود اللامتناهي .

مصر

I

مهد الأمة الاولى والحضارة الاولى

للسير ارثر كيث

٢ — الدول البرانية

أعتبر الأمة المصرية كوحدة تطورية أول أمة نشأت من نوعها . والآن هي في الألف الخامسة (على الأقل) من تاريخها . وما من أمة على الأرض حفظت شخصيتها كل هذه المدة الطويلة . فهي تعطي لعالم التطور فرصة لاكتشاف موضع القوة والضعف في وحدة الأمة . الضعف الذي عطّل حياة الأمة كان سبب الارتداد الى حال تعدد الجماعات حيث الحكومة المركزية تداعت الى الانحلال ، وكان « التعطيل » الأول الذي قضى على المملكة القديمة، وكان بداية المملكة الوسطى . ابتدأ في ضعف الدولة السادسة وانتهى بالزعيم الثيبي الذي أسس الدولة الحادية عشرة واستعاد الوحدة . والتعطيل الثاني دام كالأول قرنين ففصل المملكة الوسطى عن المملكة الجديدة . ثم عاد فوحدها زعيم ثيبي ، مؤسس الدولة الثامنة عشرة . وابتدأت المملكة الجديدة قوية . ولكن عاد الضعف القديم حيناً بعد حين . وحدث التمزق وتلاه الاتحاد الى أن حدث الفتح الأشوري سنة ٦٦٥ قبل المسيح . حينئذ أمعنت مصر في عصرها الطويل الذي خضعت فيه للسيطرة الأجنبية، فما ابتدأه الأشوريون تداولته الدول الأخرى : الفرس، فالأغريق ، فالرومان ، فالعرب ، فالترك ، وأخيراً بريطانيا . وفي هذه البرهة الأخيرة (١٩٤٦) تجري المفاوضات في موضوع جلاء بقية الجنود البريطانية عن أرض مصر . وهكذا بعد ٢٥ قرناً استعادت مصر سيادتها . وصارت أمة ذات سيادة على نمط العالم الحديث .

وقد لاحظ القارىء في تعريفي للأمة في بدء هذا المقال أني أغفلت نقطة جوهرية للأمة : وهي السيادة . فالفيكونت ريس مثلاً أنكر أن ويلس واسكوتلاندا أمتان لأنهما ليستا دولتين ذاتي سيادة . فهل هذه الحقيقة تجرد هذين الشعبين من معنى كونهما أمتين ؟ الواقع عكس هذا . الواقع يقوي شعورهما بخلاف ذلك ويغذي تقاليد استقلالهما

هكذا هو الحال في المصريين . فان السيطرة الأجنبية لم تقتل فيهم روح الاستقلال، فالفلاحون الذين يكوّنون بدن الأمة اليوم هم الفلاحون المسلسلون من أجدادهم منذ ٣٣٠٠ سنة قبل المسيح . حقيقي أن فلاحي مصر كانوا دائماً مطواعين مؤتمرين للآمرين ، فلما كانوا ديموقراطيين . ولكن هذه الصفات لا تحط من قدر شعبية المصريين . هم شعب محصور في سلالته (أعني قلما يتوالد مع غيره) هم كذلك من قبل العصر الدولي ، هم موطدو النفس على هذا . أي شعب كهذا يعتبر أمة (بكل معنى الكلمة)

في العصر الأخير من تاريخ مصر دخل في الشعب المصري دم جديد أو بزرة جديدة (أو بالأحرى genes) . هذا حدث في القرون التي تلت طرد البيزنطيين الاغريق وأمثالهم وانشاء الدولة العربية (٦٣٩ — ٦٤١) . فعلت ذلك قوة ليست أقل من ١٥ الفاً حين كان عدد المصريين يعدّون بضعة ملايين . وقد أُخذ المصريون ليس بالسيف بل بالقرآن . وحين كان المصريون يتعلمون ان يقرأوا هذا الكتاب كانوا يتعلمون لساناً جديداً — لسان العرب . وقبائل بدو الصحراء الذين كانوا يحومون حول شفا الأراضي المزروعة تركوا حياة البداوة واستقرّوا في الأرض وتزاوجوا مع الفلاحين . وبهذه الطريقة أضيف نصف مليون من العرب الى السكان الأصليين . واستمرّ هذا الامتزاج . وهكذا استعرب المصريون في اللغة والعقل والروح حتى ادعوا (أو زعماؤهم على الأقل ادعوا) ان يكون لهم مكان بين الشعوب العربية . واذا كان العقل المصري قد تأثر بهذا الاستعراب فجسمه لم يتأثر ، كما ان بعض الانثروبولوجيين يبرهنون أن تحقيقاتهم لم تكشف أي تغير في جسمانية المصريين ، الأمر الذي يدل على ان البدو منهم ليسوا جسمانيًّا مختلفين عن البدو على العموم، أو لعلّ التغير الذي حدث أفلت من نظر الانثروبولوجيين .

فسجلات الأموات في مصر حُفظت بأكثر عناية في مصر دون غيرها . فهناك جماجم وهياكل عظام كشفت من مقابرها وأخذت أقيستها من أموات في عهد ما قبل العصر الدولي الى الموتى في عصر الاحتلال الروماني . وهكذا نعرف التاريخ الطبيعي للأمة المصرية أكثر مما نعرفه لأية أمة على الأرض . ان الفضل في معرفتنا خواص المصريين القدماء الجسمانية يرجع للدكتور اليوت سميث الذي سبقت الإشارة اليه . وقد وجد هذا البحاثة أن المصري كان نحيل القوام قصير القامة — خمس أقدام وخمسة قراريط — وذو جمجمة مستطيلة وصغيرة بالنسبة للحجم . ومن عهدٍ غير بعيد قارن الدكتور ج . م مورانت Morant مقارنة دقيقة بين جماجم مختلفة مستخرجة من المقابر في جميع جهات مصر ومن عهود مختلفة ، منذ القديم الى زمن الاحتلال الروماني . فوصل الى النتيجتين التاليتين :

منذ القديم الى الدول الأولى كانت جماجم أهل مصر السفلى مختلفة عن جماجم مصر العليا بكونها أكبر وأعرض، والوجوه أوسع . ولاحظ أن شكلها في مصر السفلى كان مع الوقت ينتشر مع مجرى النيل حتى انه طغى على مصر العليا . ورأى أيضاً ان المصريين في ذلك التاريخ تحولوا من الوجهة السلالية الى شعب متشاكل كأنه قبيلة واحدة .

كيف يُقارَن مصريو اليوم بمصريي ذلك الزمن القديم ؟ أذكر آراء ثلاثة من الثقات : أولاً الدكتور تشارلس ماير الذي جمع معلومات عن المصريين الحاليين في أوائل القرن العشرين، فوجد ان حجم الرأس وشكله، هو هو، من الدلتا الى الشلال الأول، كما كان في العهد القديم. ولاحظ أن البشرة تميل الى القتامة أو الدكانة والأنف الى العرض فالفطسة كلما تصاعد من مصر السفلى الى العليا . ثم قابل بين أقيسة الجماجم المأخوذة من الأحياء بالجماجم المأخوذة من أموات القدماء في نفس المنطقة، فوجد أن درجات التغير في الزمانين متمشية على نمط واحد

ثم اذكر نتائج تحقيقات السير J. J. Craig عن عدة آلاف من السجناء من جميع مديريات القطر . فكان في جميع الجهات ان عرض الرأس الأوسط يتراوح بين ٧٤ و ٧٥ بالمئة من طوله . وألاحظ على الخصوص في ملاحظاته، ملاحظة هامة وهي أن كل مديرية تنتج نمطاً خاصاً في الشكل الطبيعي . فاستدلَّ من ذلك على أن هذا الأمر نتيجة للتزاوج المحلي (قلة الأمتزاج في الزواج من بلد لبلد) .

وشاهدي الثالث هو الأستاذ سدني سميث الذي في مدة إقامته في القاهرة سنحت له عدة ظروف للمقارنة بين جماجم المصريين الحاليين وجماجم من كانوا قبل الدوليات المصرية. فمعلوماته قادته الى هـذه النتيجة وهي ان المصريين الحاليين يرتدون بالمعنى الطبيعي الى الشكل الذي كان قبل التاريخ . هـذا على الرغم من الإضطرابات التي حدثت في التاريخ المصري، ومن تدفق الغزاة الأجانب من حين الى آخر، وتطعيم المصريين بالدماء المختلفة في خلال ٧ آلاف سنة . حسب فلندرس بتري في نهاية العصر السابق للعصر الدولي حساب القوة التي تهتضم جميع الأنماط وتدمجها في نفسها كعلامة لكل أمة أو سلالة . وبالطبع كان للمصريين هذه القوة اللازمة لهذا الإدماج .

ما هي نسبة المصريين أو قرابتهم الى شعوب الجنوب الغربي من آسيا، وشعوب شمالي أفريقيا ؟ للحصول على الجواب الثاني نعود الى العصر الأحدث والمسمى في عرف الجيولوجيين Pleistscene حين كانت الظروف الأقليمية مختلفة عنها اليوم . كان القفر الرملي العلوي على جانبي النيل حينئذٍ مأهولاً . هكذا كانت المساحات الكبرى من عرابيا (التي نسميها اليوم بلاد العرب) . في ذلك العصر كان الشعب الحامي (نسبةً الى حام ابن نوح) الأفريقي

يتصل اتصالات مختلفة بشعوب الهند المسماة درافيديان Dravidian . وهكذا كان المصريون ينتسبون انتساباً بعيداً الى شعوب الهند. وقرابتهم الى ذوي البشرة القاتمة والشعور الجعداء أقرب وأكثر مباشرة . حتى اليوم هم أكثر اتصالاً بشعوب أواسط أفريقيا بواسطة سلاسل من الطرق النيلية . ولعلّ أقرب ذوي قرباهم أهل ليبيا الذين كانوا يقطنون الأعالي المجاورة لغربي الدلتا والممتدة على شواطىء البحر المتوسط . وحينئذٍ تنقلب تلك الأعالي الى الصحراء ، وسكانها يبتغون مواطن أخرى، يبتغونها في وادي النيل (طبعاً) وعلى شواطىء البحر الأحمر ، وعلى سائر شواطىء البحر المتوسط . هكذا نرى أن أسلاف المصريين السابقين للعصر الدولي كانوا منفصلين عن سائر أفراد سلالتهم من الليبيين في الغرب، وأهل البحر الأحمر في الشرق . وإنما اتصالهم بأفريقيا الإستوائية بقي مستمراً .

في جميع تخميناتنا عن أصل المصريين نظرية لا يجوز أن تفوتنا وهي قرابة لسان بني حام الى لسان العرب . ومعظم البحاثة أو كلهم تقريباً على أن لغتي حام وسام متقاربتان جداً فلا بدّ أن متكلميهما عاشوا جنباً الى جنب في حين من الأحيان أو أكثر الأحيان . وللحصول على تفسير وافٍ لهذه النقطة يجب أن نبحث عن أصل العرب أنفسهم . وفي نظري أنه قبل اكتشاف فن الزراعة أو اختراعه بزمن طويل ، حتى قبل أن تنفصل مصر عن «عرابيا» بالبحر الأحمر حين كان سكان العرب الأصليين من ذوي البشرة الداكنة، كانوا يجمعون طعامهم من نتاج الطبيعة ، وكان القوقاسيون يغزونهم من الشمال . (١) فتزاوج الغزاة مع الأهالي وتوالدوا وتعلموا لغة الأهالي بحكم الامتزاج التي كانت سامية (نسبةً الى سام) الوضع وهي مقاربة للغة الحامية (نسبةً الى حام) . وهكذا أعتقد أن العرب إنما هم من مواليد سلالة أهالي عرابيا الأصليين وفرع من السلالة القوقاسية . ان لهذا التعليل مزية مزدوجة لتفسير مزايا شعب عرابيا الطبيعية . وقرابة اللغتين السامية والحامية .

بقي ظرف آخر لا بدّ من اعتباره في الحكم الأخير بشأن أصل المصريين وهو أن تحول الإنسان الأول نندرثال الى العنصر القوقاسي (كما شرحه المؤلف في مقال آخر) حدث في الجنوب الغربي من آسيا . ومن مكان في وسط آسيا انتشر العنصر القوقاسي الى الغرب، ليس الى أوروبا فقط، بل الى أفريقيا أيضاً شمالي الصحراء . فإذا كان الأمر كذلك — والأدلة عليه قوية — فالقوقاسيون استقروا أخيراً في مصر السفلى قبل عصر الدول المصرية بزمن طويل . فالعنصر ذو الرأس الكبير في مصر السفلى يمكن أن يعتبر قوقاسيًّا .

---

(١) طبعاً فراراً من ثلوج العصر الجليدي الزائدة

الخدمات الاجتماعية

والعشائر البدوية (١)

كيف يمكن أن تنشأ في بعض الأماكن المعينة العناصر الأولى من الخدمات الاجتماعية الضرورية للعشائر البدوية ؟ ...

إن أكبر عامل في تكوين الأبدان والأطباع في الأفراد وفي تكييف الحالات الاجتماعية في الأمم هو :

١ — الموقع الجغرافي ، ٢ — الوضع الطبغرافي ، ٣ — الاقليم أو المناخ .

هذه العوامل هي التي تنهج للأمم سنن معاشهم وأنظمة اجتماعهم وتوجد الكثير الغالب من أخلاقهم وأطوارهم . فالموقع الجغرافي للبادية جعلها في الشرق الأقصى من البلاد الشامية ، بعيدة عن دواعي العمران ، واستيطان السكان ، إلاّ في بعض الأماكن السعيدة بوجود الانهار والينابيع والقنوات كالحسكة ودير الزور وتدمر والقريتين . والوضع الطبغرافي جعلها ذات سهول شاسعة وصحراوات واسعة مستوية كل الاستواء لولا بعض الأكمات والوعرات . والاقليم أو المناخ جعلها ذات هواء جاف ومطر قليل وأفق رحيب وتراب جديب ، تتوهج فيه وقدات الشمس في الصيف ، وتهب لوافح القرّ في الشتاء ، وتبرز أرض الجوع والعطش . ولكن اذا هطلت الأمطار وكانت هذه غزيرة والأنواء رحيمة تغدو البادية أريضة بهيجة يكثر فيها الكلأ وتجود المراعي . وبعضها جميل زكي الرائحة كالعرار والشيح والقيصوم ، وتتكوّن مساقط الغيث من الغدران والخبراء . ويرى السائر قطعان الأباعر والأغنام ، ويلمح بيوت الشعر التي تخفق الأرياح فيها ويحبها البدو أكثر من القصور المشيدة . والبدو هم الناس النازلون في هذه البادية .

قال أهل اللغة من تبدّى أي نزل البادية وتعلق بالبداوة وربى الابل أو الغنم أو كليهما وارتاد الكلأ ومساقط الغيث لاجلهما فهم أعراب أهل وبر . ومن نزل بلاد الريف

---

(١) محاضرة ألقاها حضرة الاستاذ وصفي زكريا المهندس الزراعي — ألقاها في اغسطس (آب) من العام الماضي في حلقة الدراسات الاجتماعية للدولة العربية المنعقدة في بيروت (لبنان) بدعوة من الحكومة اللبنانية

واستوطن المدن والقرى العربية فهم عرب أهل مدر أو أهل حضر .

والبداوة ضرب من ضروب المعيشة في البلاد العربية كلها . وهي ضرورة أو حالة من حالات الاجتماع لا غنى عنها . ذلك لأن هذه البادية أو هذا الاوقيانوس الأرضي ينبت في الشتاء والربيع ويجود بمراعي وفيرة للإبل والماشية . فنحن بحاجة للإستفادة من هذه المراعي البعيدة المدى ، لعدم كفاءة مراعينا القريبة لماشيتنا وعدم إمكان السرح والارعاء لها إلا إذا ابتعدت عن البقاع المعمورة وتوغلت في البقاع المهجورة وأعني بها البادية .

فالطبيعة أو دواعي المعيشة إذن هي التي أجبرت البدو على التعلق بالبداوة رغم قسوتها وعلى حب التجوُّل في البادية رغم وحشتها . ذلك لأجل اطعام الإبل والغنم التي هي سبب رزقهم ومدار معيشتهم . فلولاها لما كان البدو، ولولا البدو لما كانت الإبل ولا الغنم .

والبدو في براري الجمهورية السورية يبلغون نحو (٣٠٠٠٠٠) نسمة . وهم ذوو شأن وخطر غير يسيرين في مجتمعنا ومعاشنا من قبل ومن بعد . فكل أنواع السمن وأكثر اللحوم التي نأكلها والأصواف التي ننسجها والمطايا التي نركبها هي منهم ؛ وقسم كبير من سكان المدن الشاميـة كحمص وحماه وحلب ودمشق ودير الزور وغيرها يعتمد في تجارته ومرتزقه من الماشية ونتاجها على شركائه وعشرائه من هؤلاء البدو ، كما ان مقداراً غير يسير من وارد بيت مال الدولة يتألف مما يدفعه البدو من ضرائب الإبل ورسوم الأغنام . وهم أصل العرب وذخر العروبة، ومن ثمَّ وجب ان نقرِّبهم الينا فننتفع بسواعدهم ونوابجهم، وننفعهم بمعارفنا ومواهبنا وبما نستطيع أن نسديه اليهم من الخدمات الاجتماعيـة التي فكر بها منظمو هذا المؤتمر الكرام ، فالى حضراتهم بلسان أهل البادية والحاضرة أوفر الشكر وأجزل الثناء ...

أقسام البدو

يقسم البدو في بادية الشام حسب عراقتهم بالبداوة وأطوارها الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : العشائر الجمالة أو أهل الابل ذوو النجمة البعيدة ، ويسمون في اصطلاح الافرنج البدو الرحل، وفي اصطلاح أهل بلادنا البدو الاقحاف أو الأصليين . وهؤلاء يتخذون بيوت الشعر لسكناهم والخيل لركوبهم والابل لمعاشهم ونقل أثقالهم والمقايضة في مبايعاتهم ومهر زوجاتهم ، دأبهم الظعن أو التشريق والتغريب بين قفار البادية وبراري الحاضرة ارتياداً للغدران والخبران التي يؤلفها ماء المطر وانتجاعاً لمنابت الكلأ ، فلا يزالون في حل وترحال يقطعون في نجعتهم ٥٠٠ — ٦٠٠ كيلومتر فيصلون الى منطقة

الوديان داخل الحدود العراقية او منطقة الخيران داخل الحدود الأردنية والسعودية. وهوى أهل هذا القسم انما هو في البادية وصحراواتها الشاسعة ووحشتها الرائعة وحريتها المطلقة ونباتاتها وحيواناتها . وهؤلاء أشد البدو بأساً وأقلهم أنساً وأكثرهم تحملاً للمشاق — وشظف العيش ، وهم لا يغشون قرى المعمورة ومدنها الا نادراً وللضرورة في سني المحل والظمأ للمسابلة وشراء حاجتهم وبيع أصوافهم وأوبارهم والذكور من ابلهم وخيلهم . وهؤلاء في بلادنا هم قبيلتان كبيرتان قبيلة عنزة في براري الشامية وقبيلة شمر في براري الجزيرة وما يتبعهما من العشائر العديدة .

القسم الثاني : العشائر الغنامة أو أهل الغنم ، ويسمون في اصطلاح الافرنج نصف رحل أو نصف بدو ذوي النجعة المحدودة ، وفي اصطلاح أهل بلادنا عربان الديرة أو الشوايا. وهؤلاء أيضاً عندهم إبل وخيل بالاضافة الى الماشية ، وعندهم حل وارتحال وظعن وضرب . لكنهم فريقان فريق لا يرتزق الا بالضرع أي برعي الماشية فقط . وفريق ثان يضم الى الضرع امتلاك الضياع والأرضين باستثمارها بالحرث والزرع .

والماشية التي يقتنونها إما أن تكون لهم وحدهم ، وإما أن تكون لأهل المدن الشامية في حلب وحماه وحمص ودمشق ودير الزور وغيرها ، يشاركونهم في تربيتها والمتاجرة بصوفها وأدهانها التي تدر عليهم في سني الخير ثروة غير يسيرة . وهؤلاء أيضاً ينجعون في الشتاء ، ولكن المسافات محدودة في البراري الشامية والجزيرة ، ولا تزيد عن ٢٠٠ — ٣٠٠ كيلومتر مراعاة لمقدرة الغنم ولقرب الآبار والمناهل الصالحة لورودها. وهؤلاء في بلادنا أمثال الموالي والحديديين والفواعرة والنعيم وطي والجبور والأبي شعبان وغيرهم من العشائر في الشامية والجزيرة .

القسم الثالث : العشائر المتحضرة أو المستقرة أهل الدر ، وهم الأعراب الفلاحون (الفلاليح) الذين تركوا البداوة والبادية وآووا الى حمى الدولة وهجروا بيوت الشعر الا قليلاً وتحضروا وصاروا أهل قرى وبيوت طين وحجر، وعكفوا على الحرث والزرع أكثر من تربية الماشية . وهؤلاء في بلادنا وأقضيتنا كثيرون ممن تعددت أسماؤهم وصفرت أنسابهم وأحسابهم .

أوصاف البدو

إن حالة البادية التي شرحتها جعلت لسكانها البدو أوصافاً بدنية وأشكالاً وملامح طبيعية، وخصالاً نفسية، وأخلاقاً وأفكاراً فطرية خاصة بهم ، يختلفون بها أي اختلاف عن العرب المتحضرين في القرى ناهيك عن سكان المدن .

فالبدو ذوو أجسام نحيفة في الغالب ، وقد تكون ضخمة ، وقامات متوسطة ، وقد تكون رشيقة ، وملامح منتظمة ، وألوان سمراء أميل الى السواد وجباه عريضة بارزة وعيون سود بصاصة ، وأسارير مقطبة ، وأسنان منتظمة بيضاء ، وشعر مضفر ، يحيط بوجوههم الأسيلة المنتهية بذقون مدورة تحمل لحية مجعدة مستدقة الطرف .

وأخلاق البدو وطباعهم غريبة كل الغرابة ، وهي مجموعة أضداد ، وملتقى محاسن ومساوىء . وهذا ناشىء عن انفرادهم في البوادي القفراء ، وقضائهم فيها حياة شاقة معرضة للأخطار ، مما يجعل دمهم فواراً ومزاجهم متقلباً بتقلب أهوية الفلوات . فمن طباعهم أنهم طوال الصبر والجلد ، فهم يتحملون الحر والقر والجوع والظمأ والتعب والراحة والعمل والبطالة وكثرة المشي أو قلته بنفس واحدة دون تبرم أو ضجر . ومع هذا الجلد العجيب قد يثور فيهم الغضب العظيم ويطلبون الثأر الشديد إذا أهانهم أحد أو مس كرامتهم . وعندهم الشيء الكثير من الشمم والاباء والعفة بمعناها الصحيح وقرى الضيف وحمى الجار والنزيل ، والشجاعة والعصبية والذكاء الحاد ، والبصيرة النافذة وطلاقة اللسان ، وصراحة الجنان ، والروح الديمقراطية ، وحب الحرية والاستقلال .

كذلك عندهم الشيء الكثير من الطمع وحب السلب والنهب والاعتداء على حق الغير ، ورعي الزروع واتلاف الغراس التي لغيرهم والطغيان والعدوان ، كلما تسنى لهم هذا وتوسموا ضعفاً في الحكومات ورخاوة ذوي السلطات ، وهم لا يتكلفون شيئاً من كماليات الحياة ، ولا ترهقهم أعمالها ، ولا يتمرمرون ولا يتثاقلون من الأمراض والكوارث ، ولا يبالون بمهام الحياة كالحضر . ولا يعملون ولا يجهدون إلا إذا عضتهم الحاجة بأنيابها .

وأخلاق نساء البدو حسنة في الجملة . وخير ما يزينهنّ عزة النفس وشدة التعلق بالأهل والأزواج ، وقيامهنّ مقامهم في أكثر الأعمال وضروب المتاعب ، فهنّ يقمنَ بكل ادارة بيوتهنّ ، ويعنّ الرجال حتى في الغزوات والحروب . والمرأة في نظر البدو محترمة مصونة من التعدي ، لا تمس بأذى مهما بلغت الخصومة بين العشائر . وبناء على هذه الحرمة إذا قتلت الامرأة لا تؤدى بديةٍ واحدةٍ ، بل بأربعة ديات الى ثمانية ، بالنسبة الى جسامة الجريمة .

والبدويات سافرات بالطبع يتجوّلن في المخيمات وفي البراري بكل حرية . والضرورة أو الحاجة في حياة البدو تدعو الى الاتصال الدائم بين الجنسين سواء في حلهم أو ترحالهم وفي أفراحهم وأتراحهم ، وفي الجيرة وسكنى بيوت الشعر التي لا سبيل لحجبها وتغطيتها . كل هذا من دواعي الاختلاط وسبل التعارف والتحابّ في الزواج . مع العلم بأنه محاط

بسياج قوي من الصون والعفاف والخوف . وإذا شذ الرجل أو المرأة عن العفاف تعرضا الى القتل حتماً، أو الى حدوث شجار تشترك فيه جميع أفراد العشيرة بالتطاحن والتناحر .

وأعمال البدوي كانت فيما مضى من أيام السيف والطعان ، وإطلاق العنان ، ورعي الرياض ، والغزو ، والصيد ، والقنص ، وركوب الجياد ، والطراد ، والجلاد ، أما اليوم وبعد انقطاع سبل الغزو وتطور ظروف العيش أصبح البدوي لا يكاد يعمل عملاً مذكوراً إلاّ رعي الإبل أو الغنم أو جلب الغلال وفرش البيت . وقصارى عمل الواحد منهم أن يضطجع طول نهاره يشرب قهوته وينعم بكسله وبطالته .

والنادي الوحيد لرجال العشيرة في الليل والنهار هو بيت الشيخ، لا سيما إذا قدم ضيف من الحضر . فإذا ما رأوه انسلوا من كل حدب وجاءوا لرؤيته وقعدوا حوله يرهفون آذانهم لأقواله وأخباره الطريفة . وهذا ما يسمونه (علوم) ، وأول ما يسألك البدوي في البادية أو المعمورة عن (العلوم)، وإذا لم يكن في بيت الشيخ ما يتسلون به من القصص والأخبار التي تكون عادةً على نمط واحد يأخذ شاعر العشيرة ربابة يعزف عليها ويفكهم بما عنده من محفوظه أو نظمه بأشعار ، يدور أكثرها حول المآثر والمفاخر التي جرت لمشاهير الفرسان أو الغزاة ، والإنتصارات التي أحرزوها في ميادين البطولة والبسالة أو الكرم أو الأريحية ، كما يدور بعضها على وقائع الحب والهيام . وما أكثر هذه الوقائع عند البدو . ينشد الشاعر كل ذلك بلهجتهم البدوية وأنغامهم الفطرية بأسلوب لطيف شجي يتوافق مع رنات الربابة وتترنح له أعطافهم حماساً أو طرباً . وما عدا هذا النشيد أو القصيد الذي يسمعونه فإن لديهم ألعاباً كثيرة يتسلون بها ، كما أنهم يتسلون أحياناً بسباق الخيل يطلقونها ليروا الفائز منها . ويتفاخرون بالعراضة وهي أن تجتمع الخيل مستعرضة تلعب أمام نساء العشيرة، ويتسلون أحياناً بالرقص في الأعراس وحفلات الختان ،وفي أيام الربيع وأوقات الراحة . ومع وجود بعض الأرستقراطية التي تتجلى فقط في الزواج ورئاسة العشيرة والحكم فإن هناك ديمقراطية واسعة ، إذ لا يكاد يوجد فارق في طرق المعيشة الأخرى . فالفرد وشيخ العشيرة والأمير يأكلون جميعاً الرز واللحم واللبن والتمر على طراز واحد . ويلبسون جميعاً الثوب والعباءة والعقال والكوفية على زي واحد ، ويتمتع أفرادهم بحرية لاحدَّ لها . فالبدوي يقف أمام الحاكم فيجادل في سبيل حقه ويستعمل كل الأساليب التي يراها موصلة الى ما يريد .

ولباس الرجال والنساء عند البدو في أيامنا هذه لا يختلف عما كانوا عليه في العصور الغابرة . وهذا اللباس لا يفارقهم في النهار ولا في الليل ، ولا يبدلونه إلاّ مرة في العام

بمناسبة عيد الفطر، وهو موافق كل الموافقة لحالة البادية وأقليمها . وأمراض البدو قليلة بالنسبة لخشونة عيشهم ولمكان الهواء النقي والشمس المطهرة في أجسامهم ولندرة ما يطعمون من الأطعمة المغلظة ، ولمحافظتهم على العفاف وعنايتهم بالزواج الباكر ، ولقلة الهموم التي تساورهم . وهم لو راعوا النظافة وسائر شروط الصحة وخلصوا من القمل الذي لا يفارقهم لعاشوا بلا مرض وعمروا أكثر . وهم لقناعتهم ورضائهم باليسير من الطعام وقلة أمراضهم وغلبة الصحة والجلد عليهم، يكون فكرهم دائماً رائقاً، وحافظتهم واسعة، وخواطرهم حاضرة . وقد تعلموا منذ نعومة أظفارهم اتخاذ الأرض فراشاً ، واحتمال حرارة الشمس المتوقدة ، والنوم غراراً والصبر على الجوع والظمأ ولو في حمارة القيظ . وهم لايتعاطون المسكرات، ولا يأكلون في الغالب إلا مرة واحدة في النهار هي الوجبة، وقدرها شيء زهيد بالنظر إلى ما يأكله أهل الحضر من كثرة الألوان وغيرها .

وفي العدد القادم العناصر الأولى من الخدمات الإجتماعية الفردية .

السرطان منحة التدخين

في المؤتمر الجراحي الأميركى بسطت نظرية جديدة بشأن نشوء السرطان، فقد تحدث غير واحد بأن التدخين يسبب السرطان الرئوي أو أن السرطان قد ينشأ عن التدخين، فقد روى الدكتور ايفارتس جراهم أستاذ الجراحة في كلية الطب في جامعة وشنطون تقارير احصائية عن ٤٠٠ حادثة من السرطانات الرئوية .

من هذه الأربع مئة حالة يندر أن تجد حالة سرطان صدرية لم يكون المصاب مفرطاً في التدخين عدة سنين . كل من يدخن أكثر من علبة في اليوم يعتبر مفرطاً في التدخين ولذلك ينصح الدكتور جراهم كل من يشتبه في نفسه أو ينبهه الطبيب الي الشبهة بحالة سرطانية ان يتوقف عن التدخين أو يقلل منه ما استطاع . فقد يمر خمس سنين على ظهور شبهة بالسرطان ونشوء هذا المرض الخبيث .

واستعمال التبغ في صور أخري كالغليون والسيجار قد يري أنه لا يمت بصلة شديدة بالسرطان . فالظاهر انه إذا كان الدخان هو سبب السرطان، فالسبب ليس في التدخين نفسه بل في تركيب مواد اللفافات . فقد يكون السر في الورق أو في نفس أوراق التبغ المخمرة أو نحو ذلك . على كل حال نصيحة الطبيب أن يقلل الناس من التدخين أو أن يبطلوه بتاتاً. وقد يقول القارىء نرى أشخاصاً يدخنون خمسين أو ستين سجارة في اليوم ولم يصابوا بالسرطان . نعم ليس التدخين شرطاً محتوماً للسرطان .

العزلة في رأس الجبل

مناقشة بين صحفي وناسك

٣ — صلة ما انقطع

القادر على كل شيء

صحوت صباحاً بعد نوم عميق هنيءٍ وخرجت فإذا صاحبنا في الإسطبل يخدم إخوانه. فتمشيت في المزرعة أجيل نظري هنا وهناك مبتهجاً بجمال تلك المناظر الطبيعية الخلاّبة إلى أن سمعته يناديني : —

يا ضيفي الصحفي تعال . عليك واجب تقضيه فنزلتُ في مدرّج المزرعة الى صحن الدار لكي أرى الواجب الذي عليَّ . فإذا المائدة معدة بما لذّ وطاب . ولما قضينا الواجب قلت : تركنا الحوار أمس عند نقطة الإصلاح الاجتماعي . ترى كيف يمكن أن يبنى المجتمع السليم .

قال: يمكنك أن تدك سدوم وعمورة أولاً لكي تبني هيكل أورشليم. قد لا تضطر الى البناء، فإذا هدمت فقد تجد ضمن ما تهدّم بناءً صالحاً . أزل الفساد الطاغي يظهر العلاج المطمور. فما هو الفساد الطاغي على المجتمع الآن .

ففكرت قليلاً ثم قلت : ماذا يمكن أن يكون سوى مجموعة الرذائل .

قال : قل لي إذاً بعبارة واحدة ما هي مجموعة الرذائل .

فلم أحر جواباً . لأني لم أدرِ ماذا يضمر . فقلت تفضل فقلها أنت .

قال : جمعها موسى في الوصايا العشر . ولو تعمّق في التفكير لردّها جميعاً الى أصل واحد هو أم الرذائل .

— لا أزال يا سيدي أحتاج الى زيادة تفسير

— من وصايا موسى . « لا تقتل » لماذا يقتل القاتل ؟

قلت : الغالب في ظني انه يقتل لكي يستولي على مال المقتول .

حسن جداً . ومنها « لا تسرق » فلماذا يسرق السارق ؟

— للسبب نفسه .

– ومنها : « لا تكذب . لا تشهد بالزور الخ. فلماذا يكذب الكاذب ويشهد شهادة زور الخ ؟

– أظن يفعل كل ذلك لأجل اغتصاب المال . أليس كذا ما تعني ؟

قال : لقد حزرت، إذن أصل كل الرذائل هو المال . هو الدينار الجبّار .

قلت : وهل تعني أن نزيل المال لكي يصلح المجتمع ؟

قال : لا . قد نزيل المال ولا يصلح المجتمع . لأن الوصايا العشر إنما هي نهيٌ عن الرذائل، وموسى لم يأمر بفضائل . فوصاياه تشبه صبارة طمسن .

قلت : ما خبر صبّارة طمسن ؟

قال : ألم تسمع بخبرها ؟ جاء منذ زمان سائح أميركي الى بلادنا يدعى مستر طمسن . فرأى الناس يأكلون صبّاراً ليس في بلده مثله . فود أن يذوقه . وإنما تغيظ من كثرة بزوره وصلابتها . فجعل ينكت بزور الصبّارة بالشوكة بزرة بعد بزرة الى أن نكتها جميعاً . فاذا لم يبقَ من الصبّارة شيء . كذلك الرذائل التي نهى موسى عنها إذا جعلت تطرحها واحدة واحدة فلا يبقى بعدها شيء من الأوامر بالفضائل .

فقلت : إذاً على رأيك يجب أن ننفي الرذائل وثم نبحث عن الفضائل . أو بعبارة أخرى يجب أن ننبذ أولاً الدينار الذي هو أبو الرذائل جميعاً .

قال : نعم

قلت : ولكن النظام الاجتماعي الحالي لا يستغني عن الدينار

قال : نعم النظام الحالي الاجتماعي لا يستغني عن الدينار لأن هذا الدينار أصبح فيه سلطاناً قويًّا جبّاراً . وجبروته أصل كل الشرور ، وبها يقوم النظام الحالي الذي قتل كل صلاح وسلّط كل طلاح .

قلت : انك تعزو للدينار يا سيدي قوّة تضارع قوّة الآلهة . فاذا كانت له هذه السلطة وهذه القوّة فلا يمكن أن يكون المجتمع في توازنه الحالي بين الخير والشر .

قال : أجل . ان الدينار لكذلك . ولكن ليس في المجتمع توازن بين الخير والشر البتة . الشر هو العامل المستفحل الآن . والسلطان للدينار الجبار . فإذا شئت أروي لك حكاية هذا الدينار لترى ماذا فعل من الخير والشر .

قلت : يسرني أن أسمعها

* * *

الدينار الجبار

القادر على كل شيء

قال : — سأل الغيط النهر : ما لك أهوج هكذا . عام غريق وعام حريق . لماذا لا تعتدل ؟ فلا طغيان ولا نقصان .

فقال النهر : أنا حُرٌّ

— عجيب أمرك . سمحتُ لك أن تمرَّ فيَّ نخنت وغدرت وطغيت وتجبرت .

— لم تسمح لي أنت . بل أنا أنشأتك من العدم . كنت بحراً فلا تك غريناً (طمياً) فصرت برًّا . أفلا تذكر فتشكر ؟

— أعلى طوفانك الماحق أشكرك ؟ أم على نقصانك المحرق امتنُّ ؟ يجب أن تعتدل وإلاَّ فأشكوك الى القادر على كل شيء .

— من هذا القادر على كل شيء .

— الدينار الجبار . أما بلغتك عنه الأخبار ؟

فقهقه النهر وقال : زه زه . ماذا يستطيع هذا الدينار الذي نشأ من فضلات خيري أن يفعل ؟ أبلعه ذهباً ثم أتفله ورقاً .

فذهب الغيط الى الدينار وروى له الحديث الذي جرى بينه وبين النهر . وسأله : ما حيلتك بهذا النهر الوقح المتغطرس الذي يزدريك ، ولا يحترم حقوق ضيافتي له ؟

فقال الدينار باسماً : سأؤدبه تأديباً شديداً وأسجنه ضمن حدود يسلك فيها حسب أوامري .

وما مضت برهة من الزمن حتى قطع النهر خزانٌ يُطلق المياه منه بمقدار حسب مشيئة الدينار الجبار

* * *

نطحت السفينةُ البرزخَ . فنهض هذا قائلاً : ما هذه القحة أيتها السفينة ؟ ألا ترين أنك بلغت الى البر ، وأنت مملكة لا تستطيعين أن تفارقي الماء ؟

فقالت السفينة . بل أريد أن تخفض هامتك لكي يتصل الماء بالماء فأمر فيه .

فاستشاط البرزخ غيظاً وقال : لله من وقاحتك بأي سلطان تفرضين عليَّ ارادتك ، لن أخفض هامتي . فانطحي صخري حتى يتحطم رأسك ؟ أو فعودي أدراجك وطوفي حول القارة

فقالت السفينة : سأريك أن القادر على كل شيء سيذلل هذه الهامة اليابسة تذليلاً

— ويحك ! من هذا القادر على كل شيء الذي يستطيع أن يذلل هامتي ؟

— الدينار الجبار

فقهقه البرزخ قائلاً : بخ بخ بخ(١) ستتدحرج الدنانير بين رجلي من غير أن أشعر بوجودها .

ما مضت مدة حتى شق الدينار الجبار قناة عريضة في البرزخ . وانسابت السفينة فيه وهي تتمايل تيهاً ودلالاً وتترنح سكراً من خمرة النصر . ثم قالت : أين صلابتك يا برزخ ؟ لقد ذلت رقبتك تحت قدمي

* * *

تقدم القطار والمركبة والسيارة والمشاة الى البوغاز وقالوا : انك يا هذا عائق في سبيلنا الى البر الآخر . فلماذا هذا النوم الطويل تحت الماء . قم انهض وابسط لنا ظهرك لكي نعبر عليه

فقال البوغاز : زه زه ! من سلطكم عليّ حتى تأمروني أن أغير منهاجي . لقد سمح لكم البحر بأن تعبروه في سنين فلماذا لم تخرجوا من مركباتكم وتستقلوا السفين وتعبروا

— لسنا في حاجة الى نعمك . نريد سيراً مستمراً بلا مشقة . فارفع ظهرك لكي نمشي.

فاستشاط البوغاز وقال : اني حرٌّ . لن أفعل . موتوا غرقاً .

قالوا : إذن نشكوك الى القادر على كل شيء .

— من هذا القادر الذي يستطيع أن يقهرني .

— الدينار الجبار .

— بخ بخ . لو أفرغت كل الدنانير على ظهري لما غطته . خسئتم (٢)

وذهبوا الى الدينار يحرقون الارَّم وشكوا اليه عنجهية البوغاز المتمرد . فقال الدينار: مهلاً لا يجسر بحر ولا برٌّ ولا هواء أن يتمردوا عليَّ . سأريكم كيف أزدري هذا البوغاز الكافر

وما مضت برهة من الزمن حتى كان فوق البوغاز العريض جسر أعرض . وتحته نفقٌ واسع للقطرات والمركبات والسيارات والمشاة . والبوغاز بينهما يتحرّق غيظاً لا يستطيع أن ينطح الجسر ولا أن يسحق النفق .

* * *

اندفع القطار الجبار الى سفح الجبل الشامخ ونطحه . فصاح الجبل : ويحك هل أنت أعمى . كدت تكسر حقويّ .

---

(١) بخ لاظهار الرضى والاستحسان وهنا استحسان تهكمي (٢) خسىء الكلب انزجر

فقال القطار . كلاَّ بل أُبصر جيداً . إني أبتغي الوصول عاجلاً الى السفح الآخر المتواري . فيجب أن تميل جنبك لـكي أمرَّ .

زه . زه . كأنك إلـهٌ يأمر بالمستحيل . دع هذا الحمق ودُر حول السفح .

— بل يجب أن أخترقك .

فقهقه الجبل قائلاً : « يا جبل عالٍ لا تهزك ريح » . انطح الصخرة يا سخيف النطح .

— سأريك أن القادر على كل شيء سيهزك فتميد تحت قوته .

— عجباً . أإلـهاً تعني .

— نعم . هو الالـه القادر ، هو الدينار الجبار .

— قه . قه . الدينار الذي لفظتهُ تبراً فرقَّ الى أن صار ورقاً ؟ فليأتِ وصديقتي الريح تنثره بدداً .

وذهب القطار الى الدينار الجبار وتوسل اليه أن يقهر الجبل المتغطرس ، فوعده خيراً

وما مضى حين حتى كان القطار ينساب في نفق في قلب الجبل . والجبل يتوجع من مغص دائم في جوفهِ ، ويستجير بالريح والعاصفة والزلزال ولا من مجير

* * *

وانتفخ ابن الانسان غروراً بنفسه ونادى المشرق والمغرب قائلاً يجب أن تتدانيا الى أن تصيرا واحداً ، لأننا نريد أن نتهامس ونتواصل من غير مرور زمن، ومن غير عبور مسافات .

فقالا : كفى سخافة غرور، وحماقة دعوى، أيهاذا الانسان الحقير. إنما نحن حدود الزمان والمكان على الأرض . فلا تستطيع أن تتحرك من مكان الى مكان ، من غير أن تتحرك من زمان الى زمان . هل تستطيع ؟ أليس فيلسوفك هو الذي جمعهما في لفظ « الزمكان». تسير بين المشرقين في زمانين وفي مسافتين .

فأجاب ابن آدم في إبان زهوه . بل يجب أن استغني عن الزمان والمكان جميعاً . يجب أن أكون في نقطة في سطح الكرة الأرضية في أي حين متى شئت .

قالا : عجباً ! ألعلك صرت الالـه الحاضر في كل مكان وزمان .

فقال : كذا يجب أن تكون هذه الكرة الأرضية لي .

— الله الله . لا ريب إنك جُننت . لأنه لا يستطيع هذا إلاَّ الالـه .

— أجل ديناري هو الالـه الأرضي .

— إذن . دع دينارك يفعل المستحيل .

وما هي إلاّ فترة حتى جمع السلكيُّ واللاسلكيُّ سطح الأرض في نقطة واحدة تحت قدمي ابن الانسان . فاهتزَّ المشرقان غضباً . ثم وجفا فرقاً وسجدا لقسوة الدينار الجبّار .

* * *

واجتمع النهر ، والبرزخ ، والبوغاز ، والجبل ، والمشرقان وجعلوا يتشاكون من طغيان الدينار الجبّار ، فقالوا ان هذا الشيطان الذي نحن أنتجناه استفحل أمره ، وارتدَّ علينا مشاكساً لنا ، ومعارضاً في وظائفنا ، وجعل يقصقص جوانحنا ويكسر قوائمنا ويدك أساساتنا . فما العمل لكي نكبح جماحه ونحطّم رأسهُ .

واستلفت لغطهم الصاخبُ أذنَ الريح . فوقفت فيهم قائلةً : أتتشاكون من الدينار الجبّار إله الأرض ؟ فقد بُليتُ قبلكم بغطرسة هذا الإله الرهيب . كنت سيدة السفن الشراعية أديرها حسب هواي . فانتزع مني هذه السيادة وصارت السفن البخارية تمخر العباب في أية جهةٍ رغم عواصفي وزوابعي . وكنت سيدة الجوّ أتحرك فيه كيف أشاء ، وأظلل الأرض بالسحب كما أشاء ، فما لبث أن نطح سحبي برؤوس أبراجه الباذخة . وما لبثت طائراته الضخمة تتعالى فوقي . لقد انتزع هذا الشيطان مني كل مقدرة .

فقالوا : لله ما العمل بهذا الجبار لانتزاع هذه القوّة منه .

فقالت الريح . وهل هذه القوة قوته ، هي قوة العقل البشري وقوة العضل الحيواني . فلنلجأ إلى العقل ، ونشرح له الأذى الذي صدر من الدينار المسيطر على قوة العقل والعضل .

* * *

وذهبوا جميعاً الى العقل يشكون له الأمر . فتنهّد العقل وقال : آه . وا حرباه . وا نكبتاه بهذا الدينار . لقد خلقت الدينار ووهبته القوة ، « فلما استدَّ[1] ساعده رماني » ما لبث أن أصبح صنماً ذهبيًّا ، وفرض عليَّ عبادته ، وأخضعني لسلطانه ، وامتطى متن عضلي . وجعل يستخدمني ويستثمرني ويستعمل قوّتي وقوة عضلي لنموه حتى تضخم وصار جبّاراً . وليس له من مزيةٍ ولا موهبةٍ سوى أنه ملك عنان السيادة ، فساد واستبدّ حتى صار دكتاتوراً .

فقالوا : عجباً ؟ أتكون أنت صانعه ومانحه القوة فلا تعود تقوى عليه ، بل هو يتسلط عليك ويستعبدك ؟ إذا كنت ذكيًّا فجِدْ وسيلةً لاسترداد السلطة التي اغتصبها منك .

فقال العقل : لا يمكن استرداد السلطة منه إلاّ بهلاكه في هيكله — في البورصة مقتله

فقالوا : ولكن ما هو السلاح الذي يُقتل به .

---

[1] استد : استقام

[illegible] فلما اشتد ساعده رماني [illegible]

فقال: تفاقم الطمع والشهوات قد يقضي عليه. فهل تستطيعون إهاجة الأطماع والشهوات في هيكله؟

* * *

وهاجت عوامل الطبيعة جميعاً، وشبت الحروب، فاضطربت البورصة، وتدمرت بيوت، وعمرت بيوت، وانتحرت أرواح، وبطرت أرواح، وتبددت دنانير، واضمحلت ثروات.

ولما هدأت الطبيعة وقف الدينار أمام العقل والشكاة وقال لهم: هل انتهت معركتكم؟ إنكم لحمقى. تظنون أني تبددتُ. والله ما كنت إلاّ سائحاً أتجوّل بين الخزائن والجيوب. انتقلت من مكان الى مكان الى أمكنة عديدة. ولا أزال الدينار الجبار القادر على كل شيء.

فقال العقل: بقي أيها الدينار الجبار شيء لا تستطيعه مهما استفحلت ألوهيتك.

— أستطيع كل شيء على الأرض. لا أزال إلــه الأرض القادر على كل شيء.

فقال العقل: خسئت. مهما استقويت واستفحلت فلا تستطيع أن تقتل الفقر. هل تستطيع؟

فوجم الدينار الجبار. ثم قال: حقاً لا أستطيع أن أقتل الفقر. أنا والفقر صنوان صديقان. نقوم معاً ونسقط معاً، إني وليد الفقر يا صاح. فليحيَ الفقر لكي أعيش أنا.

فقال العقل: لا تستطيع أن تقتل الفقر. ولكن الفقر سيقتلك ثم ينتحر.

* * *

هذه حكاية الدينار الجبار يا سيدي.

قلت: إنها لحكاية طريفة يا سيدي ولكنها تثبت لنا أن للدينار فضيلة عظمى لأنه لولاه لما كان لنا قناة ولا نفق ولا جسر ولا طائرة ولا لاسلكي الخ.

قال: لم يفعل الدينار شيئاً من هذا. وإنما العقل والعضل هما اللذان فعلا كل شيء. بيد أن النظام الحالي هو الذي جعل للدينار سلطة على العقل والعضل بحيث لا يعملان إلاّ بإذنه. هذا النظام استعبد العقل والعضل وأجرى نتاجهما إلى أفراد معدودين ليتبوأ هو كواهلهم له. أزل هذا النظام يزل الدينار الإلــه الأرضي ويبقى العقل والعضل حُرّين يعملان ويجتنيان نتاجهما

« في العدد القادم: نقاش في الديمقراطية »

جريمة القانون

قضية تستوجب البحث

كانت الساعة الحادية عشرة مساءً ، وقد خفت دوي السيارات حين سمع الدكتور سليم سلوم جرس الباب يطن . وما أن فتح الخادم الباب حتى دخل صديقه حليم عقل مرتاعاً متفرعاً : أرجو منك يا عزيزي الدكتور سليم أن تأتي معي الآن حالاً لأن أخي الدكتور نسيم في حالة ... وشرق حليم بدمعة . فقال سليم مبغوتاً : ويحك ! ما له ؟

فأجاب حليم باكياً : انه يُحتَضر . يقول الدكتور سيف المعالج انه قد يفارق الحياة الليلة . فرحماك يا سليم هلمَّ بنا اليه لعلَّ الله يريد أن يعمل أعجوبة عن يدك . اليوم علمت انك عدت من المؤتمر فجئت اليك .

وظهر الاضطراب الشديد على الدكتور سليم سلوم لأن الدكتور عقل صديقه الحميم فسأل بلهفة : ما مرضه . ماذا يقول الدكتور سيف ؟

— بل سل ماذا يقول الأطباء الخمسة الذين تناوبوا عليه وعقدوا جمعيات ، لإجماع رأيهم فيه وهم ...

— ماذا قال الأطباء عن مرضه

فتنهد حليم عقل وقال : آه . ماذا قالوا ! حاروا أولاً في دائه . ففي أول الأمر ظنوا انه ملاريا فعالجوها، ولكن بلا جدوى، ثم غيروا رأيهم وقالوا لعله ذات الرئة (بنيمونيا)، ثم ما لبثوا أن ظنوا الباراتيفوئيد الى أن فحصوا الدم فاذا هو تيفوئيد . . . آه يا أخي آه أبي وأمي يندبانه الآن، لأنه سيمضي الليلة ... آه يا دكتور . هلمَّ ..

فقال الدكتور سليم متأوهاً : آه . . . عزيزي نسيم . لو في امكاني شيء ! إذا كان اليأس بلغ من هؤلاء الأطباء هذا المبلغ ، فماذا استطيع أن أفعل ؟ أتعني أن أذهب لكي أقطع نياط قلبي بمشاهدته يفارق الحياة ؟ لا . لا أستطيع . لا احتمل أن أرى نسيماً يموت بين يدي . هل هو يعي الآن ؟

— لا . كل قوة فيه خمدت . بربك هلمَّ معي، وأنت آخر سهم في الكنانة .

فقال سليم : أذهبُ لكي أودع حبيبي نسيماً الوداع الأخير . هلمَّ نمر بصيدلية الاسعاف أولاً

واستقلا السيارة الى الاسعاف وأخذ الدكتور سليم منها انبوبتين من "المصل الفسيولوجي

***

دخل الدكتور سليم سلوم فرأى صديقه الدكتور نسيم مسجى في سريره ووجهه ناصع البياض، كأنه معفر بالمسحوق الأبيض، وصدره يصعد ويهبط قليلاً بكل بطء، وجفونه مطبقة. فتقدم اليه وأمسك بمعصمه فاذا النبض خافت جداً. وحينئذٍ فتح نسيم عينيه لحظة وابتسم إذ رأى صديقه كأنه ملاك. أملاك الموت يبتسم أم ناسوت نسيم.

وفي الحال غرز الدكتور سليم ابرة المصل فيه وحقنه على مهل فاختلج قليلاً خلجة لا تكاد ترى. ثم خرج مع حليم الى الردهة وسأله حليم: كيف رأيت؟

فتنهد سليم وقال: هو بين يدي الله الآن.

فقال حليم: الله يحيي العظام وهي رميم.

— نعم. كن دائماً واثقاً برحمة الله. إني باقٍ هنا الى أن يأتي الله أمراً كان مفعولاً.

ورغرغت عينا الدكتور سليم بالدموع وقال. هل ظهر في الغائط دم.

— قليل.

— هل لك أن تذهب الى الأسعاف وتأتيني بمصل الجلاتين وعلبة حقن كورامين.

— ها عندنا هنا الآن.

***

بعد ساعة دخل الدكتور سليم وحده على المريض وعاد فسأله حليم ماذا رأى. فقال: الأمل عشرة بالمئة. ولكن العشرة لاشيء. فاعتصموا بحبل الصبر وبرحمة الله. كلنا لها. إني أسمع في هذه الغرفة شهيقاً. فادخل الى والديك وعزهما. حرامٌ أن يبكيا حيًا. ودعني هنا استلق على المقعد.

بعد ساعة دخل سليم الى غرفة المريض. وعاد يقول: الحالة كما هي لا بدَّ من اعطائه حقنة أخرى من المصل.

وفعل كما قال. وبعد ساعة فحصه وعاد يقول: الأمل الآن عشرون بالمئة. هات علبة الكورامين.

وكانت الساعة الرابعة صباحاً حين عاد الدكتور سليم يقول الآن الأمل ثلاثون بالمئة.

في الساعة الخامسة قال: الأمل الآن خمسون بالمئة اخبر والديك.

حينئذٍ خرج والدا الدكتور نسيم متهللين وراما أن يقبّلا يدي الدكتور سليم. فمنعهما، وقال ما زال نسيم تحت رحمة الله. فصليا الى الله.

في الصباح قلّ الخطر جدًّا ورجح الشفاء .

فقال حليم : لله من هؤلاء الأطباء ما أغباهم ... أما كانوا يعرفون المصل ؟

فانتهره سليم قائلاً : صه لا تقل كلمة سوء عن الأطباء لقد عملوا كل ما يستطاع . ما من طبيب إلاّ ويضحي بكل راحته وكل غالٍ وثمين لأجل شفاء عليله . ليس المصل الذي أنقذ حياته وانما مشيئة الله، لا تجنح عن رحمة الله .

— ولكن أتصدّق يادكتور ان الدكتور سيف المعالج أعطاني شهادة وفاة ، لأنه كان يؤكد أنه سيمضي في منتصف الليل .

— ولكن ارادة الله لم تدخل في حساب الدكتور سيف . أرني الشهادة .

فناوله الشهادة، فقرأها باسماً وقال : لقد فعل الدكتور سيف الواجب الذي لاضرر فيه . وكان يظنه محتوماً ولكي يغنيك عن الجري لأجل الشهادة . فاعذره .

في اليوم التالي استغرب الدكتور سيف المعالج إنه لم يقرأ في الجرائد نعيّ الدكتور نسيم عقل . وسأل عنه بالتلفون فقيل له أنه أحسن حالاً . فأسرع الى المنزل والتقى بالدكتور سليم سلوم فأخبره هذا بما كان . فسأل حليماً عن الشهادة فقال الدكتور سليم لقد مزّقتها . فكن مطمئنـاً .

وقال الدكتور سليم : ان قلبه معطوب من جراء المرض فلا بدّ من مداواته كل حياته

* * *

تعاقبت الأيام والسنون والدكتور نسيم عقل في صحة تامة سوى وهن قلبـه . فكان يداوي نفسه كطبيب فاهم عالم . وكان مدرساً للباثولوجيا في كليـة الطب فلم يكن ليركب الاخطار في سبيل مهنته .

في أحـد الصيوف ذهب الدكتور نسيم عقل الى أوروبا للترويح عن النفس ولزيارة المستشفيات والاطلاع على ما جدّ في الطب الداخلي من المعلومات دأب كل طبيب ينتهز كل فرصة للاستزادة من المعرفة .

ولما عاد من أوروبا علم من زملائه أن صديقه الدكتور سليماً الذي أنقذ حياته مريض مرضاً عقاماً وهو في حالة يرثى لها ، وان الأطباء ظنوا أن هناك حصاة . فلما فتحوا البطن وجدوا سرطاناً ينهش الكبد نهشاً . ولم يجدوا بدًّا من تسكين آلامه الشديدة بالمورفين .

وكان على الدكتور نسيم أن يسرع إليه توًّا لكي يتفقـده لأنه مدينٌ له بعد الله بحياته . ولكن ماذا يمكنه أن يفعل لأجله إذا صحّ حكم الأطباء على مرضه . وبأي لسان يشجعه ويقوي أمله وهو طبيب مثله يفهم مصير سرطان الكبد . أو بأية لغة يعزيه ويسكن

روعه . كان يتمنى أن لا يعود من أوروبا إلاّ بعد وفاته لكيلا يقف منه موقف العاجز اليائس . بل كان يتمنى أن يكون هو المريض وذاك طبيبه مرة ثانية .

ارتبك جدّاً وجعل يصوغ في ضميره الكلام الذي يقوله لصديقه العزيز . ولكن بأي كلامٍ يموّه عليه وهو طبيب يفهم مصير السرطان . على أن عيادته له محتومة لامناص منها وإلاّ كان ناكر الجميل .

دخل نسيم على صديقه الحميم توّاً فوجده شاحباً يتألم فبادره سليم : رحماك . ابرة المورفين قبل التسليم لأني لا أصبر على وجع . الأدوات هنا على الخوان الصغير الى جنبي

فحقنه نسيم وهو يقول له : تشجّع يا عزيزي .

— أي نعم . أين الشجاعة لدى سيف عزرائيل وعذاب الجحيم .

— كل الكلام الذي استعدّ له الدكتور نسيم ذهب أدراج الرياح . فلم ينطق بشيء حينئذٍ لما رآه من بلوى ويأس . وقال هل ثبت للزملاء شيء أكيد ؟

فأنّ سليم أنّة الألم المبرح ، أنّة سمعها سكان الأبدية ، وقال بصوتٍ خافت واهن : فتحوا البطن لكي يعلموا ما في الكبد فوجدوا سرطاناً ، لا بل ثعباناً اسمّ من ألف سرطان . آه يا عزيزي نسيم : لو كنت تنقذني . فقد احتملت ما لم يحتمله أيوب . ولم يكن المورفين إلاّ ليزيد فيّ عذاباً . فإما أنا أكون في ألم ناصب ، أو في خبل رهيب . آه ليتك تنقذني . فلم يتمالك نسيم عبراته وقال : ليتني فداك . آه لو يمكنني إنقاذك . ليس لك إلاّ المورفين والصبر .

— ويحي اني أذوق الأمرّين . ولم يعد المورفين ليسكن الألم إلاّ بمقادير تحوّل الألم الى خبَل . آه لو تنقذني .

— أنت طبيب مثلي يا نسيم . وتعلم أني لا أستطيع أن أفعل شيئاً غير الحقن بهذا العقّار الإلهي .

— هذا المورفين لا يسكّن إلاّ آلام الجسد الى حين ، ولكن آلام النفس ؟ إذا صحوت برهة قصيرة تناوبتني الأفكار السوداء . أين المسكّن لآلام النفس ؟

— صبراً يا أخي .

— على ماذا الصبر ؟ أعلى حياة شقاء ، لا نهاية لها إلاّ القبر ؟ إني كل يوم أشقى من يوم إلى أن يقبض عزرائيل على الروح . فلماذا الصبر ؟

— ما ذا تظنني أفعل لأجل راحتك ؟

— تستطيع أن تفعل أمراً حاسماً . تقدّم إليّ فأقول لك .

فدنا نسيم منهُ فهمس : خلـّصني من حياة لم يبقَ لي فيها مطمع ولا راحة . أليس الفناء أفضل من شقاء البقاء .

فأجفل الدكتور نسيم وقال : ويحك ! ماذا تقول

— أقول ان كل يوم أقضيه في هذا العذاب بعد حكم القدر عليَّ بالرحيل المماطل إنما هو امتداد في عذابي . فإذا شئت يا عزيزي أن تخدمني كما خدمتك تنقذني من حياتي هذه التي لا تطاق

— لا أفهم ماذا تقول .

— لست أهذي بل أقول قولاً معقولاً . بدل ذرّتين من المورفين أعطني عشرين ذرّة فيرتاح القلب من الخفقان الذي أنهكه . مدَّ يدك تحت المخدّة فتعثر على ورقة هي لك ولعلك لم تعلم بخبرها حتى اليوم .

فدسَّ سليم يده تحت المخدة واستخرج الورقة واطلع . فدُهش إذ اطلع على شهادة الدكتور سيف بوفاة نسيم . وقال : لا ريب أني مدين بحياتي لك يا سليم ، ليتني أستطيع أن أوفيك جزاء فضلك .

— تستطيع أن تنقذني من حياتي المعذبة كما أنقذت حياتك . واحدة بواحدة . حقنة مورفين كبيرة جداً تقضي الأمر . فانتفض نسيم وقال : ويحي . ارتكب جريمة القتل ؟

— لا كل زملائنا الذين عرفوا حالي وحقنوني بالمورفين يعرفون أن جسمي مشبّع بالمورفين وكلهم يعرفون أني محكوم عليَّ بالموت حتماً . فإن لم أمت اليوم فغداً . ولا شيء يثير الشبهة . فليس ثمت جريمة . بل هي رحمة ، والله يغتفرها لك . بل تكون أنت يد الله الرحيم . بربك أنقذني لم أعد أطيق آلاماً ولا انتظاراً لموت قادم عليَّ قدوم السلحفاة أو قدوم الظل في الظهيرة .

وكان نسيم يفكر الى أن قال : إنك يا عزيزي تعرضني لخطر عظيم . قد أنقذك من عذابك ، ولكني أعرض حياتي للتهلكة . ليس كثيراً عليَّ أن أفتديك بحياتي لو كان فيها خلاص لك . وتنهّد نسيم وقال : آه القانون لا يرحم .

فقال سليم : تبّاً لهذا القانون الذي يوجب على الإنسان أن يتألم يوماً بعد يوم ، وأسبوعاً بعد أسبوع الى أن يموت . هل القانون فوق رحمة الله . لا أعتقد أن الأمر يصل الى دار القضاء . وليس ثمت بينة ولا دليل . فاعتصم برحمة الله وافعل .

فتململ الدكتور نسيم وهو لا يدري ماذا يقول إلى أن قال ، ما قولك أن نعقد جمعية من اخواننا الأطباء الأخصاء ونستشيرهم في الأمر .

— ويحك! أتريد أن تقيم شهوداً عليك. لا تستشر أحداً افعل والله يغفر لك.

وكان نسيم يتردد عليه أحياناً لكي يحقنه بالمورفين كما كان يفعل الزملاء. وأخيراً ترك الزملاء سليماً لعهدة نسيم صديقه.

لم تمض بضعة أيام حتى نعت الجرائد الدكتور سليماً سلوماً معددة فضائله وخدمته للانسانية. وشيعه الى دار الأبدية جمهور الأصدقاء مترحمين عليه.

لم تمضِ على وفاته الاّ بضعة أيام حتى طلبت النيابة الدكتور نسيماً للتحقيق لأن رسالة خلواً من توقيع وصلت اليها تنص على أن الدكتور نسيماً دس سمّاً للدكتور سليم فقتله.

واستخرجت الجثة من مثواها وشرّحت فظهر في الامعاء بقية من مورفين مستعطى من الداخل فضلاً عن مورفين في الشرايين معطى بالحقن في العضل.

ولم تعانِ النيابة كثيراً في استخراج الاعتراف من قلب الدكتور نسيم. اعترف أنه فعل الجريمة انقاذاً لصديقه من السرطان الذي لا يطاق. وكان ذلك بناء على طلبه. وقدم نسيم وثيقة من الفقيد تثبت انه طلب منه بإلحاح شديد ورجاء حارّ أن ينقذه من عذابه باعطائه جرعة كبيرة من المورفين. ففعل لأنه عرف ككل طبيب أن لا أمل بشفائه. فخلصه من عذابه.

ووكل نسيم محامياً قديراً للدفاع عنه. وماذا في يد المحامي من سلاح الاّ أن المتهم صالح الضمير عمل ما تقتضيه الانسانية والرحمة.

ثم قال المحامي: لو كان عندنا نظام المحلفين لكان المحلفون يلجأون الى شريعة الضمير، لا الى القانون المكتوب الأصمّ. لأن للمحلفين قلوباً تحس وتشعر، وضمائر تفهم العدل، وتجعل الرحمة فوق العدل، ولكن القانون بلا قلب ولا ضمير. والمحكمة لا تستطيع أن تحيد عن القانون. ولكنها يمكنها أن تستعمل الرأفة بالمتهم وقد اقتنعت بظروف القضية.

حكمت المحكمة بناء على الظروف المخففة على المتهم بالحبس ثلاث سنين مع الأشغال فقط رحمة به.

لم يمكث نسيم في السجن سوى شهرين لأن قلبه الواهي بسبب مرضه الذي تقدم وصفه لم يحتمل الغم والشغل والبيئة فقضى الى رحمة ربه بالسكتة القلبية، ودفن كما يدفن المجرمون السجناء من حيث لا يعلم أحد بوفاته إلاّ بعد حين.

وهكذا جنى القانون على بريء لا ذنب له إلاّ انه رحم عليلاً إجابة لرجاء الانسانية والحاح الضمير.

فما رأي أهل القضاء؟

فراشة

جاءت تبث الروض شاكيةً   غصصاً من الأشواق تشجيها
مالت على الأزهار ساردةً   سِيَراً تفيض لها مآقيها
أفضت بما تخفي دخيلتها   وأتت على أسرار أهليها
والزهر آذان مفتحة   تتلقط الأخبار عن فيها
يا ضيعة للسر حين مضت   تروي على الأزهار ماضيها
قد ضيّعت ما استودعته ولم   ترع الأمانة أو توفيها

* * *

راحت تشق الأفق ضاربةً   أجوازه بجناحها تيها
بسطت جناحيها نخلتهما   جُلنارة[1] رفّت أعاليها
أو مهجة عصفت بلابلها   من لوعة الذكرى لما فيها
تنداح في الآفاق سابحةً   كسفينة شالت مراسيها
أرأيتها جدّت محلقة   في الأفق والظلماء تخفيها
والريح تدفعها وتجذبها   والليل ينشرها ويطويها
لكنها ظلت مكابرةً   تتصنع الاقدام تمويها
عجبي لها مما تجشمه   من شدة كانت تعانيها
هل عندها من سيرةٍ عجبٍ   صعدت الى الجوزاء ترويها ؟ !

* * *

ما كان قلبك في نوازعه   إلاّ الفراشة قام يحكيها
تهتاجه فتنٌ فتصرفه   عن سنة للحق يبغيها
وكذا الفراشة ليس يردعها   عن غيّها من راح يهديها
كم جامح للنار تحسبه   فجراً أضاء فتزدهي تيها
وتدف نحو النار ناشدةً   نوراً فترديها أمانيها ! !

(دمشق)   عدنان مردم بك

---

[1] تضبط جلنارة بتشديد اللام ، ولكن ينكسر البيت ، ومعناها زهرة الرمان

وحي الصحراء

قد وقفنا ساعة بين الرمال   أي حسن ها هنا يسبي خيالي
يا رمال الشوق آيات الخلود   قد دعتنا فاستجبنا للجمال
يا فضاء العمر أسرار الوجود   همس الساري بها بين التلال

وقفة المشدوه يا قلبي تأمل   سيطر الرحمن فانظر وتمهل
هذه الصحراء في صمتٍ تنادي   قدرة الخلاق في حضني فأقبل
أيها المخدوع في قلبي اليقين   دع هموماً ثم بالصبر تجمل

قد طواك الشك في دنيا الظلام   كيف تحيا مطمئناً في سلام
أنت عبد القيد في سجن سحيق   انطلق بالروح في ظل الوئام
كلما ضمتك أشباح الظنون   رحت تبغي سلوة بين المدام

أيها الجبار أذللت الرياحا   يا عباب اليم هذا الموج صاحا
يا رمال البيد يا بنت الصحاري   كم ضممنا بين جنبينا جراحا
يا سماء الفجر أحلامي تلاشت   بين نجم سادر يبغي رواحا

أيها المكدود تبكي في أنين   حدّث البيداء عن هذي الشجون
كم جدود قبلنا جابوا القفار   خلدوا للمجد آيات الفنون
إنما الأيام فلك في خضم   كم أطاح الموج ظلماً بالسفين

كل ما حولي سكون في سكون   انطوى حزناً على سرٍّ دفين
ثم جاء الليل كالموت البطيء   ناشراً في الكون أطباق الظنون
فالتقى بالحلكة السوداء وهمٌ   يدفع الأفكار في صرح الجنون

هزّني صوت ينادي من بعيد   يا طريد الفكر تمضي كالشريد
كم جدود قد بنوا صرح المعالي   هذه آثارهم رمز الخلود
أيها الهائم في بحر الحياة   عد لرملي فيه أحكام الوجود

أماني فريد

لئلا ننسى

« في مصر الآن ضيف كريم ، ولكنه ليس غريباً عن مصر فقد كان فيها قبل بضع سنوات منذ مدة طويلة مدير القسم العربي في المدرسة العبيدية وله في مصر أصدقاء من كبار العلماء والادباء . ثم عاد الى فلسطين مفتشاً للمعارف برهة ، الى أن انتهت خدمته مع الانكليز المحتلين وهم تحت سيطرة اليهود ، فاعتزل الخدمة وأسس مدرسة داخلية للتعليم المتوسط (متريكيولاشن) فكان الاقبال عليها عظيماً وتخرج منها عدد من الشبان ، لان الاهالي هناك يعرفونه عالماً أديباً مربياً . ثم انتخب عضواً في المجمع اللغوي العلمي المصري — هو الاستاذ خليل السكاكيني

— ١ —

نحن في ذُروة العَلْياء من جبل القطمون الى الغرب من القدس القديمة . في الشهر الرابع من سنة ١٩٤٨ ، والقتال بيننا وبين العدوّ مستحرٌّ مستمرٌّ : تمرُّ الليلة تِلوَ الليلة ونحن أيقاظ لا تأخذنا سِنة . ونحن وقوف وراء أكياس الرمل لا نصيب شيئاً من الراحة ، والعدوّ يشن الهجوم تِلْو الهجوم ، فيتصدّى له « ابرهيم أبو ديّه » بطل القطمون على قلة رجاله وعتاده فيردُّه خاسراً .

ألا ! مثلَهُ ومثل رجاله ليكن الأبطال

القتال مستحرٌّ مستمرٌّ ، وقد بلغ الذروة ليلة الخميس ١٩٤٨/٤/٢٩ أمَّا الأرض فقد كانت تميد تحت أقدامنا ، وأما الدار فقد كادت تسقط على رؤوسنا ، الى أن انبثق الفجر ، وإذا بابرهيم أبو دية قد أقبل من ساحة القتال وهي على بضع خطوات من دارنا أشعث أغبر منخرق القميص مثخناً بالجراح . لو رأيته لما عرفته . وهو يقول : لقد قتل أكثر رجالي . قلنا : ألم تُستنجد أحداً ؟ قال : لا أستنجد أحداً ، إذا لم ينجدوني من تلقاء أنفسهم فلا خير فيهم .

القتال مستحرٌّ مستمرٌّ ورجالنا يقلّون ، وعتادنا أوشك أن ينفد

أما ابرهيم أبو دية فانتقل برجاله الأبطال الى مكان آخر قريب ليستأنف منه القتال .

وأما نحن فقد ترددنا كثيراً قبل أن أجمعنا على ترك تلك الناحية إلى أجل . وكنا آخر من ترك القطمون من سكانه .

... أوعينا في حقائبنا بعض ما نحتاج إليه : حرصت أن آخذ دفاتري وأوراقي لعلي أحتاج إليها . ولكن نسيت الجميع ، حرصت أن آخذ نارجيلتي وهي دماغي الثاني لا أدخن إلاّ قرأت أو كتبت ، ولا أقرأ أو أكتب إلاّ دخنت . ولكن أخذت الناربيج ونسيت النارجيلة

تركنا الدار والأثاث والمؤونة والمكتبة والثياب والبيانو العظيم الذي لا نجد ولن نجد له مثيلاً . والثلاجة الكهربائية الكبيرة التي كانت وقفاً على المحلة كلها . ما احتاج جار الى قطعة ثلج يبرّد بها شرابه الآجاءَ يحمل سطله وأخذ حاجته بل ما يزيد عن حاجته . وفوق ذلك كله تركنا الأمانات الثمينة التي أرسلها إلينا أصحابها على اعتقاد منهم أن بيتنا ممتنع صعبٌ إذا تطاولت إليه الأعناق جذت . واذا امتدّت إليه الأبصار رُدّت وهي كليلة . تركنا ذلك كله في كفالة الملك قطمير وهو الملاك الموكل بالأمانات .

— ٢ —

الوداع يا دارنا ! يا مستودع الأمانات . يا مجمع الخلان ، يا مقصد السمّار والزّوار في الليل والنهار .

لم يكن يمر بك أحد ولو ابن سبيل إلاّ دخل فشرب القهوة ، واذا كنا على الطعام أشركناه في ما تيسَّر . ولكن نحمد الله أن المتطفلين على كثرتهم قليلون

الوداع يا دارنا ! يا دار الأمة ، يا ملتقى أقطاب السياسة وزعماء الأدب ورجال الصحافة . وكل من كانت محطة الإذاعة تُدعوهم من كبار الخطباء والفنانين من مصر ولبنان وسوريا والعراق كأني أنا الداعي . وكأن داري دار إذاعة .

الوداع يا دارنا ؟ يا صُفّة اخوان الصفاء . يا ايوان كسرى ، يا قصر غمدان ، يا قصر بهرام جور ، ياقبة نجران . يا قصر رغدان — قصر الملك عبد الله في عمان — يا مَوْرِدَ اليُمْن — قصر الدكتور منصور فهمي باشا في القاهرة — ياسدير ، ياخوَرْنق ، يا ارم ذات العماد ، يا إزال يا ظفار يا ندبرد ، ياكونتننتال ، ياميناهاوس ، ياسميراميس ، يا بلميرا ، ياكوكا كولا ، ياسان لايت صوب !!!

كم عقدنا فيك من جلسات . وأقمنا فيك من حفلات لتناول الشاي أو الغداء أو العشاء فكان الضيوف الكرام يلتهمون ما لذّ وطاب التهاماً ، كأن بيني وبينهما ثأراً !

الوداع يا دارنا ! لا يجهلك أحد ، بل بك تعرف الدور . إذا سأل أحدٌ : أين دار فلان ؟ قالوا له : الى يمين دار السكاكيني . الى يسارها ، من يزر فلسطين ولم يزرك فكأنه لم يزر فلسطين !

* * *

الوداع يا خزانة المشروبات . لم نفتحك إلاّ محتفلين . ومن دعابات ولدي إنه دعا مرّة أصدقاءه ، وهم كُثْر والحمد لله، الى حفلةٍ سمّاها «حفلة فتح الخزانة» ولكنه ذيّل رقاع الدعوة بقوله : الرجاء رفض الدعوة .

ولكنهم لم يرفضوا . وكان ما كان . فظُنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر

لا أذكر تلك الساعة الهائلة التي خرجنا فيها من الدار مع البازي عليه سواد والقذائف تتساقط حولنا ، والرصاص يتطاير فوق رؤوسنا إلاّ دققت يداً بيد، وقلت : كيف نسينا أن نأخذ معنا كل ما في الخزانة من زجاجات ، ألا تعست العجلة !

— ٣ —

الوداع يا مكتبتي ، يا دار الحكمة . يا أكاديمية أفلاطون ، يا رواق زينو . يا حديقة أبيقور !

كم أحييت فيك الليالي الطوال أقرأ وأكتب والليل ساجٍ والناس نيام، ولا يهوّن من وجدي إلاّ أني نقلت يومياتي وهي تملأ أُلوفاً من الصفحات الى مكان أمين ، فقد كان من ديدني منذ حداثتي أن أكتب كل يوم ما يمر بي من أحوال ، وما يعن لي من خواطر ، وما توحيه اليّ مطالعاتي ، وما التقطهُ من مخالطة الرجال ذوي العقول .

ولكن لا يقلق بالي إلاّ أن أكون قد نسيت يوميات أميركا ، ويوميات الحرب العالمية الأولى ، ويوميات السجن في دمشق ، وخطباً كثيرة في موضوعات مختلفة مما يخطر ولا يخطر في البال . وكل هذه اليوميات والخطب عزيزة عليّ كأنها أفلاذ كبدي .

— ٤ —

الوداع يا كتبي النفيسة! أقول كتبي وأنا أعني أولاً أني لم أرثها عن الآباء والأجداد، فقد أدركت سن الرجال وليس في بيتنا كتاب إلاّ الانجيل توارثناه جيلاً بعد جيل لا لنقرأه ولكن لنتبرك به بدليل اننا وضعناه على رفٍّ عالٍ لا تصل اليه يد ، ووضعنا أمامه قنديل زيت لا ينطفىء إجلالاً له .

وأعني ثانياً أني لم استعرها من الناس كما يفعل بعضهم ممن يجيزون سرقة الكتب،

يستعيرونها ولا يردونها. نعم لم أرثها ولم استعرها ، ولكنها من انشاء هذا العاجز ، لم أحتج إلى كتاب إلاّ اقتنيته ولو اشتط صاحبه في الثمن .

إذا سمعتم أن مؤلفاً أو كتبياً قد أصبح في غفلة من الدهر غنياً لا سمح الله، فاعلموا أن الجانب الأكبر من هذه الثروة هو من جيب هذا العاجز الفقير اليه تعالى ، وما من كتاب قتنيته إلاّ قرأته واستوعبته ، فلا تقولوا : وعند الشيخ كتبٌ ما قرأها .

وقد ملأت الكتب غرفة المطالعة من الأرض الى السقف ، من كل جانب والغرفة ليست صغيرة. وقد كان في نيتي أن أجعل الدار كلها مكتبة : نطبخ في المكتبة . ونأكل في المكتبة ، ونستقبل الضيوف في المكتبة ، وننام في المكتبة فنتخذ من الكتب وطاءنا وغطاءنا ، إذا عرينا اتخذنا من ورق الكتب ثياباً وإذا هوجمنا في عقر دارنا اتخذنا من الكتب متاريس وقذائف ، والويل ثم الويل لمن يقع على رأسه كتاب ، والويل ثم الويل لمن تنهار عليه الكتب من كل جانب فتقتله كما انهارت كتب الجاحظ عليه فقتلته. ولعلّ كتاب البيان والتبيين هو الذي أجهز عليه .

لم تعرض مشكلة في اللغة في إحدى دوائر الحكومة ، أو أحد مجالس الأدب إلاّ سألوني عنها لأنهم يعرفون أن مظان هذه المشكلة لا توجد الاّ في مكتبتي . وقد أكون من العارفين بهذه المظان .

الوداع يا كتبي ! لست أدري ما حلّ بك بعد رحيلنا . أنهبتِ، أحرقتِ، أنقلت معززة مكرمة الى مكتبة عامة أو خاصة . أصرتِ الى دكاكين البقالين تلف بأوراقك المبيعات ولو كانت بصلاً

الوداع يا كتبي !

يعزّ عليّ أن أحرم منك وأنا على أهبة الرحيل من هذه الدنيا ، وهل يستطيع من كان مثلي على أهبة الرحيل ، والبقية الباقية من عمره لا تزيد عن أربعين أو خمسين سنة أن ينشىء مكتبة جديدة !؟.

يعز عليّ أن أحرم منكِ وقد كنتِ غذائي الروحي . وكنتُ ولا أزال شرهاً الى هذا الغذاء . فقد كنتُ ألازمك في ليلي ونهاري. ولم يزرني أحد في الليل أوالنهار إلاّ وجدني مكبّاً على كتبي . أما وقد فقدتك فقد ذهب العمر ضياعاً .

وهنا أرفع صوتي قائلاً : من له أذنان للسمع فليسمع ، من وقع في يده كتاب من كتبي فليتفضل برده اليّ وله الأجر والثواب

— ٥ —

اني من الذين يقرأون كثيراً ، ولي لذة في قراءتي لا في ذلتي وخضوعي . وأحمد الله أني الى الآن لا أستعمل نظارتين، على حين أن كثيرين من اصدقائي من أبناء زماني بل ممن هم أصغر مني سناً لا يستطيعون القراءة إلا إذا استعملوا النظارات ، وكم أغيظهم حين يفقدون نظاراتهم فلا يجدونها . فأقرأ وهم لا يستطيعون أن يقرأوا .

بل أحمد الله أني في تجدُّد مستمرّ كأن ابرهيم الحوراني عناني حين قال :

قدُم الزمان وهمتي تتجدَّدُ فكأنني في كل يوم أُولدُ

أرحب بالآراء الجديدة على حين أن كثيرين من أبناء زماني ، بل ممن هم أصغر مني سناً، تُعرض عليهم الفكر الجديد فيستوحشون منه ، ويلجأون الى قديمهم .

وإني لأستغرب كيف يطيق أبناء هذا العصر ، عصر المطالعة ، أن تمر الأيام تلو الأيام، بل الشهور تلو الشهور ، بل السنون تلو السنين ، وهم لم يطالعوا كتاباً . تدخل الى بيوتهم فلا تجد فيها كتاباً ، قد يبالغون في اقتناء الرياش الغالي . فإذا زرتهم حسبت بيوتهم معارض للطرائف والتحائف ، وأما الكتب فلا يعيرونها أقل اهتمام ، على حين أن بعضهم يشغلون مناصب عالية . ومع ذلك يكتفون بما حصلوه أيام الحداثة في المدارس الإبتدائية على قلته وتفاهته . هؤلاء لا أكفُّ عن تقريعهم وحثهم على المطالعة ، ولا بدَّ أن أنجح فلا تمر خمسون أو ستون سنة من تاريخه أعلاه أو أدناه حتى أرى في كل بيت مكتبة ان شاء الله.

ومن الغرائب في هذا الباب أن أحدهم كان مولعاً باقتناء الأحذية . فإذا زاره زائر أخذه الى خزانة الأحذية ، وقال :

أنظر هذا حذاء للصيف . وهذا حذاء للشتاء . وهذا حذاء للحفلات ، وهذا حذاء للسهرات ، فقال له أحد الظرفاء :

ما هذا يا سيدي ! أهي كتب نفيسة !!

* * *

المعرفة نوعان : ما وعاه الصدر ، وما وعاه القمطر ،

إذا سئلت ، فأجبت فمعرفتي من النوع الأول ، وإذا سئلت فرجعت الى كتبي فمعرفتي من النوع الثاني .

وقد مر بي دور كنت اعتمد فيه على ما وعاه صدري ، فكنت كما قال الأمام الشافعي :

علمي معي حيثما يممت يتبعني صدري وعاء له لا بطن صندوق

إن كنت في البيت كان العلم فيه معي   أو كنت في السوق كان العلم في السوق

كنت إذا كتبت أرسل القلم على سجيته لا يخامرني شك ، ولا أراجع كتاباً . وإذا ضمني مجلس ، فتنقلنا في الحديث من موضوع الى موضوع : من العلم الى الفلسفة الى الدين الى السياسة ، الى الاجتماع ، الى غير ذلك من علوم الأولين والآخرين ، أخذت الحديث كله على حسابي ، كأن لسان حالي يقول :

عني خذوا ، وبي اقتدوا

أعوذ بالله من الغرور .

ثم دخلت في دور ثانٍ أصبحت معرفتي فيه من النوعين معاً ، قد أسأل فأجيب ، ولكن أقول : ومع ذلك تعالوا نفتش عن الجواب في مظانه . ولا يستفيد من الكتب إلاّ الذي خالطها ، واعتاد الرجوع اليها ، والتنقيب فيها . وإلاّ فلا تفيده الكتب شيئاً .

ثم دخلت في دور ثالث تسرَّب اليّ فيه الشك في كل ما وعاه صدري ، فتناسيتُهُ ، وجعلت اعتمادي كله على ما وعاه قمطري .

أما اليوم وقد ذهب القمطر كما ذهب ما في الصدر فالويل لي . لقد أصبحت من أجهل الجاهلين .

لقد أصبحت أخشى إذا رويت بيتاً من الشعر ان أنسبه الى غير قائله . واذا ضمني مجلس نخضنا في الفلسفة ان أنسب ما قاله سقراط الى ارسطو ، وأنسب ما قاله نيتشه الى شوبنهاور ، واذا ذكرنا مكاناً في أقصى الجنوب ان أقول انه في أقصى الشمال . واذا استشهدت بآيةٍ أو مثل أن أجعل الآية مثلاً ، وان أجعل المثل آية ، واذا تكلفت اللغة الفصحى ان أرفع المنصوب ، أو أنصب المرفوع على نحو ما وقع في الحكايات التالية :

كنا خمسة في سيارة فجعلنا نتناشد الأشعار الى أن أتينا الى المتنبي . فجعل كل واحد يروي شيئاً من شعره . وكان أحدنا يسمع ولا يتكلم ، فلما جاء ذكر المتنبي خرج من صمته فقال : لا يعجبني من شعر المتنبي إلاّ قوله :

قم في الدجى يا أيها المتعبد   حتى متى فوق الأسرَّة ترقد

وهو مطلع قصيدة لليازجي الكبير وردت في كتابه مجمع البحرين ، فلم يسع أحدنا وهو أكبرنا سناً إلاّ أن قال : ليتك بقيت صامتاً .

كان أحدهم في حلقة ضمت نخبة من الأدباء ، وكانوا يتناشدون الأشعار ، ولا يذكرون بيتاً من الشعر إلاّ نسبوه الى صاحبه ، وأشاروا الى مواطن الاحسان والاساءة فيه ، ف
كان من صاحبنا إلاّ أن قال :

إن هرون الرشيد لم يكن يعجبه إلاّ شعر خليل مطران.

كان أحدهم اذا ضمه مجلس يتكلف اللغة الفصحي وهو يجهلها . فتخرج من فمه يلعن بعضها بعضاً ، ومع ذلك كان العامة يحسبونه من العلماء . لأن العالم عندهم هو الذي يتكلم فلا يفهمه أحد . ففي أحد هذه المجالس قال في سياق حديثه : رأيت الرجلُ بضم اللام في الرجل . وكان في المجلس بعض الأساتذة ، فلم يسع أحدهم إلاّ أن صاح به :

افتح اللام يا هذا ! فقال : صحيح ، صحيح ، مبتدا

* * *

لنرجع الى موضوعنا .

تركنا القدس في الساعة السادسة صباحاً من يوم الجمعة ٣٠/٤/١٩٤٨ في سيارة مدرستنا ، وكان يسوقها الفتى عبد الوافي عرفات . وقد كنت أخشى أن يكون قد غير رأيه، اذا رأى الخطر فأحجم عن اقتحامه . لو فعل لكان في سعة من العذر . ولكنه لم يلبث أن جاء قبل الموعد . فأعجبت بشجاعته، وعلو همته ، وقوة ارادته . وهنا محل لأن أثني عليه أطيب الثناء .

الطرق خالية ، وما تحركت السيارة حتى انهال علينا الرصاص من كل جانب .

أسرع يا عبد الوافي أسرع ! لعلنا ننجو

وصلنا مدينة الخليل ، وكان في فم الطريق حرس مسلح . فوقفنا نسألهم ويسألوننا . ثم جعل كثيرون ينحدرون من أعالي الجبال وسلاحهم في أيديهم ليسمعوا أخبارنا ، وكان بينهم كثيرون نعرفهم ويعرفوننا منهم السيد أحمد حجة مختار قرية دوره من جبل الخليل، وهو من أصدقاء ابرهيم أبو دية . وقد اشترك في معارك كثيرة من معارك القطمون فأبلى فيها البلاء الحسن . وهو ذو شطاط كصدر الرمح ، تلوح على وجهه علائم النجابة والشجاعة . فلما رآنا أقبل يجاملنا، ويطيب خواطرنا. ويسأل عن صديقه أبو دية ثم ودعناهم وقلنا للسيارة .

مصر ، يا سيارة ، فسيري وخدي

خليل السكاكينى

نظرات في النفس والحياة

- ٢١ -

تتمة نظرات جوتا

(١٢) أشد الصعوبات توجد حيث لا يبحث عنها الانسان سواء أكان ذلك في الحياة أو في الأدب أو في العلم . فاذا لم يجد الانسان صعوبات فليس معنى ذلك انها غير موجودة

(١٣) لو كان من المستطاع ادخار الوقت، وخزن الزمن كما يدخر المال، وكما يخزن الذهب، لحين الحاجة الى صرفه وبذله في عمل ما، لكان لذوي الكسل بعض العذر في عدم صرف وقتهم في العمل المنتج . ولكن حتى لو كان خزن الزمن وادخاره مستطاعاً ليصرفه صاحبه عند الحاجة، لكان هذا أيضاً من ضعف رأي صاحبه ، إذ يكون كمن يصرف من رأس ماله المدّخر بدل الصرف مما يربح بالعمل . والذي يصرف من رأس ماله لا من ربحه، يوشك أن يُفلس

(١٤) قيمة كل أمرٍ في الحياة تكون على قدر معونة المرء على تكميل نفسه وتهذيبها وتثقيفها . ولعلّ في هذا بعض ما في قول هازليت : ان الإنسان إذا تمنى أن يكون إنساناً آخر فهو في الحقيقة لا يتمنى إلاّ أموراً تُكمل شخصيته الخاصّة ، كأنْ يتمنى ذكاء هذا، أو ثروة ذلك ، أو سعادة آخر . إذ لو تخلّى عن نفسه وعقله وعن ذكرياته واحساساته وأفكاره لصار إنساناً آخر، فلا يفيده تحقق ما يتمناه بل يفيد هذا الشخصَ الآخر. وإذاً لو خُيّر أفقر صعلوك وطُلِبَ منه أن يتخلى عن نفسه، وان يكون ملِكاً أو ثرياً أو عالماً ما تصوّر إلاّ أن ينال مُلك الأول، أو ثروة الثاني، أو علم الآخر، على شرط أن تبقى له نفسه . وهذا مصداق قول الاسكندر المقدوني : لو لم أكن الاسكندر لتمنّيتُ أن أكون ديوجنيز (أي الفيلسوف المعروف) .

(١٥) مهما حاول الانسان أن يفسر أسباب جودة الأمور الجيدة الممتازة ، فإن في جودتها صفات لا تفسر : إذ تجلّ عن التفسير وهذا يذكرني أحد أصحاب الفن الذي كان مولعاً بالنظر الى صورة موناليزا التي عنوانها المسرورة (لاجيوكوندا) . فلما كتب والتر باتر وأطال في وصف أسباب جودتها وابتعاثها للسرور، قال صاحب الفن : إن أقوال والتر باتر عن هذه الصورة إنما هي من أدب الخيال وقصصه، أي ليست أسباباً حقيقية .

(١٦) إنه أمر مُحْـرِجٌ حقـًا أن يمدح الرجل الممتاز، وان يعجب به الحمقى والأغبياء. وكأن جوتا ينظر الى عكس قول المتنبي أو الى ما يكمل معنى بيته : —

واذا أتتك مَذَمَّتي من ناقصٍ فهي الشهـادة لي بأني كامل

واذا أتى المدح من أهل النقص كان مدحاً مريباً، وربما يخيل للسامع ان الممدوح ناقص مثلهم . وهذا يتفق أن يكون ، وقد لايكون ، دليلا ولكنه محرج كما قال جوتا.

(١٧) كلما كبر الانسان ازداد تسامحاً اذا لم ينسَ أخطاءه وأغلاطه في ماضي حياته ، وإذا عامل الناس بمثل ما عامل نفسه به في تلك الأخطاء والأغلاط . وهذا شرط قلما يستقيم إذ ان نفس المرء كثيراً ما تدعوه الى نسيان أغلاطها وأخطائها، والى نسيان تسامحه مع نفسه ، بل انه كثيراً ما يحسب انه يكفر عن تسامحه مع نفسه في ذنوبها بالتشدد والعنف مع الناس اذا وقعوا في مثلها، الا اذا أراد أن يعذر نفسه بأن يعذر الناس، ولكن يمنعه من ذلك خوفه أن تظنَّ به محاولة عذر نفسه إذا عذر الناس فيحجم عن عذرهم.

(١٨) ان صاحب الفن أو الصنع قد يجيد الصنع في فنه ، ولكنه قد يعجز عن أن يفسر سبب جودة صنعه ، كما قد يعجز عن تفسير سبب جودة صنع غيره . والواقع ان صاحب الفن قد يكون غافلاً عن جودة صنعه حتى انه قد يفضل من صُنْعَيْهِ أقلهما جودة فيحكم له بأنه يمتاز عما هو أحق بالتفضيل .

(١٩) في كل المقاصد والأغراض الانسانية إذا فصل المرء بين الأمر الواقع وبين التفكير النظري أخلَّ بالفن والحياة ، إذ أن كلاً منهما متمم ومصحح لأخيه .

(٢٠) عند ما علم بعض الفرنسيين أن ميرابو الخطيب كان مديناً الى حد كبير في خطبه للمادة التي جمعها له دو مونت، ظنوا ان هذا أمر ينقص من قدر ميرابو. وقد قال جوتا : كأن أمثال هؤلاء القوم يحسبون أن هيراقليز رب القوة عند الأغريق كان يستطيع أن يستغني عن الغذاء، وما كان يستغني في تلك الخرافات عنه ليظهر قوته، وكذلك العبقري انما كان عبقريـًا لقدرته على الامساك بالأمور يميناً ويساراً، ولقدرته على الاستفادة منها مادة لعبقريته وعلى اعطائها حياة خاصة من لبه وإحساسه . وقال جوته أيضاً : ان ابتكار العبقري إنما يكون بذكريات مؤلفة تأليفاً فنيـًا ومنسقة تنسيقاً مبدعاً .

وقد ألمَّ أبو العلاء المعري بهذه المعاني وأبدع في باب التشبيه كل الابداع في قوله :

والنحل يجني المرَّ من نور الربى فيصير شهداً في طريق رضـابه

أي انه يجني من الزهر ويعطي بدل ما جنى رضاب النحل ، وكذلك العبقري .

(٢١) من الصعب أن يظل المرء منفرداً عن المذاهب والجماعات لأنه إذا التحق بطائفة منها فهو حتى في حين إخفاقه وخيبته يجد الاطمئنان والسكينة والأمان . ويزداد المرء رغبة في الخير إذا اتصل بجماعة ترغب في الخير، كما يشجع على عمل الشر إذا كان في طائفة ترغب في الشر . وقول جوتا يذكرني كلمة لهازليت في صعوبة بقاء الإنسان مستقلاً عن الجماعات والأحزاب . قال : إنه تتضاءل لديه نفسه حتى يتهمها بالباطل ، وحتى يتهم رأيه إذا ألحّ عليه كل الناس بالخلاف ، ويظل كأن الأرض زالت من تحت قدميه ، وظلّ معلقاً في الفضاء – والواقع أن من يدّعي الإستقلال عن الأحزاب والجماعات يتصل بها في أمور كثيرة ، فليس هناك انفصال تام .

(٢٢) كثيراً ما تكون النظريات العامة محاولة من الرجل المتسرّع القليل الصبر الذي يحاول التخلص من الظاهرات ومن الجهد المرهق الذي يقتضيه تفسيرها، فيضع مكانها صورة أو فكرة أو كلمة جوفاء ينخدع بها من لا يجرب الأمور بنفسه، بل يعتمد على الروح الحزبية بين الجماعات .

(٢٣) عند ما نفقد الشغف بشيء والرغبة فيه ، نفقد ذكراه كما أن المرء لا يسمع ما لا يود سماعه . وهذه نظرات سيكولوجية من جوتا هي أشبه بأقوال سيجموند فرود

(٢٤) لا يستطيع المرء أن يكتسب ثقافة من غيره إلاّ إذا استطاع تثقيف نفسه .

(٢٥) إذا أخطأنا في المحسوسات، فليس الخطأ خطأ الحواس، بل خطأ ملكة الحكم على المحسوسات، فإنها تخطيء إذا لم تعرف حدود الحواس، وطرق استخدامها استخداماً صحيحاً.

(٢٦) كثيراً ما يتقدّم من يدافع عن الباطل بلطف وأدب، بينما يعتزّ من يرى نفسه على حق بما يراه من الحق في نفسه فيستغنى عن اللطف والأدب . لأن الأول يريد أن يكون باطله مقبولاً ، فيدلف الى الناس بما تهوى قلوبهم، والثاني قد يخذل الحق الذي يدافع عنه بالإعتزاز الذي ينأى به عن اللطف والأدب .

وفي الختام نقول أن في مؤلفات جوتا فكراً كثيراً يدعو الى الفكر، وإن الحكم له بأقواله أصدق من الحكم عليه بأقوال نقاده ،حتى وان كان في أقوالهم بعض الحق .

ع . ش

خلود الحياة (١)
في فلسفة اقبال

- ٢ -

في أحوال عديدة و بأساليب مختلفة يبين شاعرنا أن الحياة تختفي ضعيفة لتظهر قوية فلا خوف من ذهاب شيء لأنه سيظهر بصورة أجمل وأحسن كما مرّ في الصورة السابقة. وفي هذه القطعة يتحدّث لنا عن تزلزل الحياة واضطرابها الدائم ليزيدنا يقيناً بها .

في خضم الحياة يضطرب الموج   ولا يستقر في أي حال
ثوران الحياة في الكون بادٍ   كل شيء به رهين انتقال
كل ذرّات هذه الأرض دوماً   في احتدام وثورة واشتعال
لا يغرنك في الجبال سكون   قد يجيء السكون بالزلزال
ليس ذاك الثبات في الفلك دائر   إلاّ من خدعة الأنظار
لا تني في المسير قافلة الكون   ولا تنتهي من الأسفار
عالم دائم التجدد موار الخطى   ليس في الطريق بوان
لا يمل التغيير إلاّ خمول   ليس يدري ما لذّة الطيران
الحياة الجهاد والجد والوثبة   والعزم ماضياً والبكور
يقطف الزهر في الفروع ولكن   فوق تلك الفروع تنمو زهور

اقبال يعرف هذه الحقيقة ، ويخلق لها من الطبيعة أجمل الصور وأحدث التشبيهات، ليزيل اليأس المظلم بنور الأمل المشرق. وفي هذه الأبيات دقة هذه المعاني متجلية تريك

---

(١) مقتطفات من الكتاب الذي سيظهر قريباً بعنوان «فلسفة اقبال والثقافة الاسلامية في الباكستان والهند» ترجمة الاستاذ محمد حسن الاعظمي عميد كلية اللغة العربية في الباكستان والسكرتير العام للمؤتمر الاسلامي الدائم والشيخ الصاوي شعلان دبلوم معهد اللغات الشرقية بجامعة فؤاد

الحياة ماثلة في تغيرها من جميل الى أجمل ومن حسن الى أحسن . فهو يخاطب النجم الذي يلمع في ظلام حالك مضطرباً في القبة الزرقاء قائلاً : لعلك تخشى فناء حياتك باشراق الصباح فلذلك تقضي ليلك في فزع . ويقول للمسافر في رحلة الدنيا أن موت البراعم حياة للزهور :

فنـاء ملايـين النجوم مبشر   بأنوار شمس السموات تولد
ونوم الردى سكر سيعقب نشوة   بخمر حيـاة في الخـلود تجدد
وتوديع أيام البراعيم مؤذن   بخلق الزهـور الباسمات جمالا
ومصنع هذا الكون بالخلق دائر   فإني أرى فيـه السكون محالا
وليس سوى التغيير في الكون ثابت   يغـير حالاً ثم ينشىء حالا

في هدوء المساء يقف إقبـال في عالم سكينته وأحلامه على شاطىء بحر الراوي ناظراً الى منار قصر الملك الجغتائي الذي يسمعه قصة انقلاب الزمن، ثم يتأمل الى سفينته تجري مسرعة في البحر، ثم تغيب عن الأنظار فيترجم عن فكره المنير بهذا البيت : —

سفينة عيش المرء تبدو وتختفي   ولـكنها في الموج لا تتحطم

وقد تحدَّث اقبال في صور مختلفة عن خلود الحياة الإنسانية. والآن : تأمل الى النهر الذي ينحدر من القمم المرتفعة في ملاءته البيضاء، هابطاً كسلاسل الفضة، مرسلاً من خريره نغماً شجيًّا يتعلم منـه البلبل ترجيع ألحانه، حتى اذا هبط الى السفوح والوديان، تفرقت قطراته كما يتفرق الآلاف، وكانت لا ترى الآن من ذلك الماء السلسال شيئاً فإذا سرت قليلاً بعد ذلك بين الرمال رأيت النهر متجلياً في حلاه الفضية يسقي من حوله الغابات والأعشاب.

كذلك نهر الحياة يهبط من سمائها ثم يغيب حيناً ليظهر منسقاً في مجرى الخلود. ويقدم لنا هذه الصورة الأنيقة : —

من رؤس الجبال ينحدر النهر   طروب الأمواج عذب الأغاني
ينقل الطير عنـه بين الروابي   ما يبث الغصون من ألحان
كخدود الحور الحسان تراه   في صفاء البلور حلو الخرير
ثم تمضي تلك الميـاه ضياعا   في تلال منثورة وصخور
قطـرات من النمير طوتهـا   في ثنايا الرمال ايدي الفراق
ثم تجـري بها الينـابيع في   الأرض فتحظى بعد النوى بالتلاق
فاذا النهـر بعد ذلك في   مجراه يحيي الزهور والأعشابا

فضـة تنبـت الزمرد في الأرض   وتسقي النخيل والأعنابا
وحياة الانسان نهر سماوي   توالت بسيره الأقـدار
كلما غاض ماؤه عاد فياضاً   فما ينقضي له تيـار
شعلة النفس لا تصير رماداً   ضوؤها خالد على الأزمان
كل شيء يمضي وكل حياة   تنقضي غير جوهر الانسان

ويطالعنا اقبال ببرهان عميق، يحملنا على الاذعان والتصديق، ويزيد الايمان في أنفسنا جلاءً ووضوحاً. وذلك انه لما كان الحرص على الحياة وتنازع البقاء مما هو مركز في جميع طباع الأحياء، مستقر في غرائز الكائنات، وكأن القدرة بذلك نقشت سر الخلود في حب الحياة. وعموم الموت وشموله يدلنا على انه لا يؤثر في حقيقة الوجود، وانه لا يزيد عن كونه أمراً عرضيًّا كالنوم الذي لا يؤثر في حيوية النائم والى هذا المعنى يشير بقوله :

سر الخلود يجري مع الدم في العروق   وخالط الأرواح والأحيـاء
لم يحينا الرحمن في الدنيا سدًى   وهو الحكيم مشيئة وقضاء
لما رأيت الموت أشملنا علمت   بأنه لن يستحيـل فنـاء
الموت مثل النوم يبدأ سكرة   ويعود صحواً دائماً وبقاء

لا توجد في علوم الطبيعة قيمة خاصة للحياة الانسانية وليس للمعاني الانسانية العليا شأن خاص في هذه الكائنات ولكن الدين يعلمنا أن الانسانية أشرف المخلوقات بل ان هذه الكائنات خلقت لأجله.

واذا كان هذا صحيحاً فتأملوا الى تلك النجوم التي تنير منذ ملايين السنين التي تكبو العقول دون حساب أعمارها فلنوازنها بالانسان الذي هو أبعد نظراً، وأعلى قيمة وشرفاً من النجوم، ومما وراء الأفلاك.

وليست السماء في سعة فطرته الا نقطة ومقصد حياته أعلى من مقامات الملائكة، ومن أنفاسه يتجلى النور في محافل القدرة. وقد حمل الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقنَ منها. فهل تحيـا هذه النجوم كل هذا العمر الطويل والانسان الذي يساميها بقلامة ظفره يفنى في لحظة؟ وهل هو أقل من هذه الذرات اللامعة حتى تبقى هي في لمعانها ثم يمحى ضياؤه في لمحة ...

يا أيها المسلم إن الأرض والسماء لك   ضياؤك القدسي أعلى من شرارات الفلك

ما جئت في الدنيا لتفنى وهي بالخلد تدوم
هل تصبح الشمس أقل قيمة من النجوم

تأملوا الى حقيقة البذور عندما غطيت بتراب الأرض وهي لم تضمحل تحت الثرى ولم ينضب معين حيويتها ، وهي دفينة في ترابها . بل كما كانت في تفاعلها مضطربة للنشوة والنماء وشعلة الحياة المستورة في وجودها لم تنطفىء من تلك الظلمات ، حتى نمت وترعرعت وتفتحت أكمامها بالزهور الباسمات عن أجمل الألوان وأعطر النسيم حتى أوحت الى نفس الشاعر هذه الأبيات .

لقد دفنوا في التراب البذور   فلم تفن في لحدها الهامد
ولم تنطفىء نارها في الحياة   على طول مرقدها البارد
لقد نسجت للحياة البقاء   وصاغت من الزهر أبهى حلاه
نما غصنها زاهراً واستعادت   من الموت تجديد ذوق الحياة

الشاعر الوحيد يعبر عن المعنى الواحد بأساليب مختلفة، ولا ضير عليه من تكرار المعنى الذي يفتن له في تجديد الحلة وتجميل الأسلوب، وهذا هو شأن اقبال . فقد عبر لنا عن مساء الموت وصبح الخلود في الصور السابقة ، ثم هو يعيد هذا المعنى في ثوب آخر حين يعرض علينا الصباح مقبلاً في حلته الباهرة يوقظ العالم لاستقبال الحياة بنشوة وأمل .

وما الموت بهذا المشهد الطبيعي الجميل إلاّ صورة واليك هذه الأبيات :

حينما يسفر الصباح نديًّا   ناصعاً في مواكب الاشراق
يغسل النور في المشارق أدر   ان الدياجي عن حلة الآفاق
ويطير الكرى وينتبه العشب   وتصحو عزائم الكائنات
ويهب الأحياء في البر والبحر   ليستقبلوا عروس الحياة
وإذا كان للخلائق ناموس   يرينا الصباح بعد المساء
فكذا تذهب الحياة ولكن   بعد ليل الحمام صبح البقاء

ليست حلقات الحياة الإنسانية ضيقة الى حدٍّ أن ترتبط بالهيكل الترابي وجوداً وعدماً . ثم أن الدنيا أول المنازل وليست آخرها . هذه القبة الزرقاء ليست نهاية وجودنا ، وليست الأجسام إلاّ وكراً لهذه الأرواح، فاذا ذهب الوكر يخلق وكر آخر . هذا هو عمل الفطرة

التي لا تتقيد بسلسلتي الليل والنهار . وقد حدثنا اقبال عن هذا العمل أحسن الحديث وبين أن المسلم عظيم الشأن في الخلود ، وأنه أقوى وأعظم من هذا الكون المحدود : —

فوق السماء أيها الحر سماوات أخر   وفوق هذا المجد في دنياك مجد منتظر
بعد الحياة أيها المسلم تبدأ الحياه   صانع دنياك وأخراك مما هو الالـه
ان البرايا دول بها الفضاء حافل   لم تنقطع من الطريق هذه القوافل
وكم وراء عالم الألوان من عوالم   فلا تضع حداً لما في النفس من عزائم
كل الذي تعرفه ليس نهاية الوجود   فكم توارت مدن وراء هذه الحدود
ان هدم العش ففي البستان تنشأ الوكور   طر للخلود مؤمناً ليس الجمود للطيور
فبعد هذا الظل يا بلبل ماء وهواء   وجنة أخرى يطيب في رياضها الغناء
الليل والنهار للآمال لا يتسعان   فاطلب مقاماً للعلا فوق الزمان والمكان

تذهب الأفراد ويبقى النسل والأمة — ويجب على المسلمين أن يذكروا أن بقاءهم في هذه الدنيا ضروري لتكميل حكمة الله . والرسالة التي لم تتم في أمتي الخليل والكليم يتمها أذان المسلم ، ان النسيم العليل يمر على البراعم ، ولكن الزهور لا تستكمل نموها حتى تدمي يد البستاني أغصانها وأشجارها بالتشذيب . والصاعقة تسقط على وكر القمري فيموت والبلبل يقع فريسة في شرك الصياد ولكن رونق الربيع باق . وآلاف الطيور تقبل وتنشد ألحانها وتطير والبستان لا يزال قائماً : —

اذا سقطت زهرة في الربيع   فكم في بساتينه من زهور
ويارب لؤلؤة حطموها   لترفع في التاج أو في النحور
يغيب الصباح من المشرقين   ويمضي المساء من المغربين
وما زال يقبل هذا وذاك   جديدين في حلة النيرين
مئات السنين مضت في الحياة   وما استنفدت بحر أزمانها
وكم أفرغ الشاربون الكؤوس   وما زالت الخمر في حانها
وكم زال أمس فوافى غد   وكم أشرق النور بعد الظلم
يزول من الارض أفرادها   وتبقى الشعوب بها والأمم

المسلم آية من آيات الله ، وآيات الله لا تزول . المسلم ، باق ليرفع العلم ويتسنم خلافة الأرض . وأعداء الاسلام يحاولون أن يسقط هذا العلم وان يذهب المسلمون . ولكن هؤلاء الأعداء أنفسهم كثيراً ما يشاهدون نور الاسلام فيصبحون في طليعة أنصاره وحماته ، فينقلب عدوانهم حماية ورعاية . اذا سقطت بعض مواطن المسلمين فالمسلم سيبقى والاسلام لن يفنى : —

ذلك المسلم من أندلس   سيعيد العزم في الشمس مكانه
من سقاه العشق يوماً خمره   لم يعد في السكر محتاجاً لحانه
والليالي علمتنا عبراً   في الذي مرّ به غزو التتار
كفروا ثم اجتلوا نور الهدى   فاهتدوا لما رأوا ذاك المنار
عرفوا الاسلام فانقادوا له   وغدا أعداؤه ركن حماه

المنظر الذي يروع الإنسان هو حركة الموت التي تسكن بعدها الأعضاء ، وتبرد الحواس . فحينما يراك اقبال مرتعداً مذعوراً لهذا المشهد الرهيب ، يضع على قلبك برد العزاء ويبين لك أن ملك الموت لا يميت الأرواح ، وان أفنى عالم الأشباح : —

يعصف الموت بالجسوم ولكن   ليس يغني من قوة النفس شيّا
تصعد الروح للخلود ويبقى   عالم الغيب والشهادة حيّا
لا تمت من مخافة الموت جهلاً   فبغير الأنفاس روحك تحيا

ليس الإنسان من هذا العالم في شيء فجميع ما حوله من المظاهر الماديّة تضمحل وتذهب مع الهشيم ، ويبقى بعد ذلك جوهر الانسان ساطعاً . يحدّثنا عنه اقبال : —

هوى سرير « كيقباد » (١)   وانطوى اكليل « جم »
وأصبح الكل رماداً   مثل هيكل الصنم
أما أنا فلست أدري   أين يعلو نظري
أنا تراب غير أن الشمس   دون جوهري

---

(١) كيقباد وجم من ملوك الفرس القدماء

البترول

في الشرق الاوسط (١)

تبشر حركة التوسع في استغلال البترول في الشرق الأوسط بأن تكون وسيلة لتحرير الدول أنفسها من الفقر المدقع الناشىء من تقييد الزراعة والاقتصاد فيها .

وقد أمكن الوقوف على معلومات وتقديرات حديثة استناداً الى نتائج هذه البحوث عن مبلغ استنباط البترول في الشرق الأوسط . غير ان بعض هذه المعلومات لا يزال تقريبيًّا ويجب أن نقبله بحذر وقتيًّا حتى تصل إلينا معلومات أوفى منها .

وأحدث معلومات جدت عن كميات الزيت الخام التي اكتشفت في خلال السنوات العشر الماضية في البلدان المحيطة بالخليج الفارسي تشير الى أن ما ثبت وجوده فعلاً هو ٣٢ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ برميل من الزيت في هذه المنطقة مقابل ٢٤ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ مليون برميل ثبت وجودها في الولايات المتحدة حالياً .

ويمكن توزيع هذه المقادير في منطقة الشرق الأوسط كما يأتي : بالبليون برميل

المملكة العربية السعودية	٧	بلايين برميل
الكويت	٩	» »
العراق	٦	» »
ايران	٨ر٩	» »
القطر المصري	١	» »

وما فتئت هيئة البحوث تعتقد من زمن أن الخليج الفارسي هو المنطقة الرئيسية لاستخراج البترول في العالم .

---

(١) نشرت جريدة النيويورك تيمس من مدة بحثاً مستفيضاً أعدته الشركة الاميركية العربية للزيوت عن البترول في الشرق . ونحن ننشر هذا البحث لما لمسألة البترول من أهمية كبرى في الصراع الدولي القائم .

وعلى ذلك يمكن توزيع المقادير المستخرجة يومياً كما يأتي :

المملكة السعودية العربية	٤٢٥ ألف برميل
إيران	٥٠٠ » »
العراق	٨٧ر٥ » »
	خفضت مؤقتاً الى ٤٣ر٧ ألف برميل
البحرين	٣٠ ألف برميل
الكويت	١٠٠ » »

وكذلك أذيع أن ما مجموعه ١ر١٤٢ر٥٠٠ برميل يستخرج يومياً وتساهم بنصف الانتاج شركات أهلية أميركية ، تسيطر عليها تماماً الحكومة السعودية، وحكومة البحرين ، وتشرف عليها إشرافاً جزئياً حكومتا الكويت والعراق .

وفي الأحوال العادية حين لا تضطرم فلسطين بنار الحرب يمكن استنباط ٨٧ر٥٠٠ برميل يومياً بواسطة أنابيب للزيت تنتهي مصباتها على ساحل البحر المتوسط ، غير أنه لا يمكن الآن ان يُنقل الا ٤٣ر٧٥٠ برميل بهذه الوسيلة .

ومعدل ما يشحن يومياً الى الشرق الأقصى هو ٤١٠ر٠٠٠ برميل كما أن ٦٠٠ر٠٠٠ برميل تنقل من شبه الجزيرة العربية بواسطة ناقلات البترول الى أوروبا والى مناطق أخرى منها الولايات المتحدة ، وذلك لسد حاجاتها ، أما الباقي فيبقى للاستهلاك المحلي ، وقد يضيع بعضه في عمليات التكرير .

وأصبح من المتوقع أن يبلغ مقدار ما ينقل من الزيت الخام من الشرق الأوسط الى الغرب حتى سنة ١٩٥١ أكثر من ١ر١٠٠ر٠٠٠ برميل يومياً .

أما في سنة ١٩٥٦ فقد يبلغ ١ر٥٠٠ر٠٠٠ برميل .

ويشمل مشروع أنابيب الزيت بعد إقامة خطين؛ قطر أنابيب كل منهما ١٢ بوصة، وهما تابعان لشركة البترول العراقية ، يبدآن من كيركوك ويصل أحدهما الى حيفا، والآخر الى طرابلس ، وينساب في كل منهما ٤٣ر٧٥٠ برميل يومياً .

وتشمل مشروعات أنابيب الزيت المقترحة مد خط قطره ١٦ بوصة، تنشئه شركة البترول العراقية من كيركوك الى حيفا لنقل ٨٧ر٥٠٠ برميل يومياً ، ويُظن ان ينتهي انشاء هذا الخط في أول يناير ، كما أن الشركة عينها تمد خطاً آخر من كيركوك الى طرابلس لنقل ٨٧ر٥٠٠ برميل أخرى يُنتهَى من انشائه في ابريل سنة ١٩٥٠ ، وكذلك تقوم شركة الأنابيب عبر الأراضي العربية بمد خط يتفاوت قطره بين ٣٠ و٣١ بوصه من الجزيرة

العربية الى صيدا ينساب فيه ٣٠٠ر٠٠٠ برميل يوميًا ، وقُدِّر لهذا المشروع أن ينتهي في أول يناير سنة ١٩٥٠ . (فهل انتهى يا ترى ؟)

واقترحت ثلاثة مشروعات أخرى لمد خطوط البترول وقُدِّر لها أن تتم في أثناء سنة ١٩٥٣ أو بانتهائها ، وتشمل هذه المشروعات مد خط يتفاوت قطره بين ٣٤ بوصة و ٣٦ تنشئه شركة أنابيب الشرق الأوسط . ويمتد من ايران الى سوريا لنقل ٥٣٥ر٠٠٠ برميل

وتقوم شركة الخطوط الشرقية الكويتية بمد خط من نوعه يبدأ من الكويت ويمتد الى أن يصب في بقعة لم تعين بعد . وذلك لتيسير مهمة نقل ٣٠٠ر٠٠٠ برميل . وكذلك تقوم شركة البترول العراقية بمد خط ثالث قطر أنابيبه ٣٠ بوصة يبدأ من كيركوك ويمتد الى طرابلس لنقل ٣٠٠ر٠٠٠ برميل (كل يوم ؟) .

وجاء في تقارير هيئة الباحثين أن مشروعات مدّ أنابيب البترول المقترحة من شأنها نقل ١ر٦٩٧ر٥٠٠ برميل يوميًّا .

ووجد هؤلاء الباحثون ان طاقة معامل تكرير البترول في الشرق الأوسط في الوقت الحالي هي ٨٢١ر٠٠٠ برميل يوميًا ، غير أن هذه الطاقة ستزيد في المستقبل حتى تصل الى ١ر١٠٠ر٤٠٠ برميل بعد تنفيذ المشروعات الجديدة .

***

وأشار الباحثون الى أن توزيع معامل تكرير البترول في الشرق الأوسط سواء في ما أنشىء فعلاً أو ما يعتزم انشاؤه هو كما يلي:

إيران (الشركة الانجلو إيران) طاقتها الحالية ٤٢٢ر١٠٠ برميل — تزاد إلى ٤٩٥ر٠٥٠ برميل في المستقبل .

البحرين (شركة بترول البحرين) طاقتها الحالية ١٦٠ر١٠٠ برميل — تزاد الى ١٦٥ر٥٠٠ برميل في المستقبل .

المملكة السعودية (الشركة العربية الأميركية للبترول) طاقتها الحالية ١٣٤ر٠٠٠ برميل — تزاد الى ١٤٠ر٠٠٠ برميل في المستقبل .

فلسطين (شركة كونسيلدليدشيد للتكرير) طاقتها الحالية ٩٠ر٠٠٠ برميل — تزاد الى ١٥٤ر٠٠٠ برميل في المستقبل .

العراق (شركة البترول العراقية) طاقتها الحالية ٩ر٩٠٠ برميل حالياً .

لبنان (سكوني فاكوم) ٥ر٠٠٠ برميل حالياً .

صيدا (شركة تكرير البحر المتوسط) — تزاد الى ٨١ر٥٠٠ برميل في المستقبل . الكويت (شركة الكويت للبترول) — تزاد الى ٥٠ر٠٠٠ برميل في المستقبل . ويبحث الآن مشروع إنشاء مصانع كبيرة لتكرير البترول في طرابلس .

وقدرت هيئة الباحثين نفقات التكرير ومد خطوط البترول ومعدات الإنتاج بنحو ١ر٩٢٤ر٠٠٠ر٠٠٠ دولار ، وذلك في خمس سنوات تبدأ من سنة ١٩٤٨ و تنتهي سنة ١٩٥٣

وإذا وزعت هذه النفقات على دول الشرق الأوسط كان نصيب كل منها ما يلي :

شركة أنابيب البترول عبر الأراضى العربية	٢٠٠ مليون دولار .
شركة التكرير للبحر المتوسط	٦٩ » »
شركة العراق للبترول	١٨٠ » »
أعمال التكرير الاضافية في حيفا	٢٥ » »
وسائل الإنتاج للشركة العربية الأميركية	٣٢٠ » »
شركة أنابيب الشرق الأوسط	٢٣٠ » »
شركة الخطوط الشرقية الكويتية	٢٠٠ » »

وسائل الانتاج في العراق ، والكويت والمنطقة المحايدة ، والبحرين ، والقطر ، وبعض مناطق أخرى ٧٠٠ مليون دولار

وعند ما عرضت هيئة الباحثين دول الشرق الأوسط دولة دولة وجدت أنه وإن كانت الزراعة تتقدم في بعض هذه المناطق ، فإن تحسين نوع الإنتاج الزراعي لن يكون قاعدة عامة في جميع هذه المناطق .

وعلى كل حال ، فإن هذه الهيئة تعتقد أن استغلال هذه الموارد لا يقتصر أثره على إنماء النهضة الصناعية بزيادة الوقود ، بل سيمهد كذلك سبيل للمبادلات مع البلاد الأجنبية لتحقيق الارتقاء الداخلي وتهيئة وظائف للموظفين ، وبذلك تتحسن حالة عشرات من الآلاف من العائلات عدا ما يترتب على ذلك من مزايا لا حصر لها .

وقررت هذه الهيئة أن المبادلات الخارجية السنوية التي تنشط بفعل نهضة البترول في عشر دول في الفترة بين سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٣ يبلغ قدرها ١٥٤ر٩٦٨ر٠٠٠ دولاراً فتكون حصة الفرد ٩ر٠٤٠ من الدولارات

* * *

وهذا المبلغ يشمل ما يدفع مباشرةً للحكومات من أرباح الامتيازات والضرائب العادية والرسوم الجمركية وسواها ، وكذلك الأجور التي تدفع للموظفين والعمال ورسوم تأجير الأراضي وتكاليف الطعام والأدوات والحاجات الطبية ونفقات أسباب الترفيه... الخ وثلث هذا القدر سيكون بالاسترليني لا بالدولارات .

ويقدر مجموع الأرباح الناتجة من المبادلات الخارجية السنوية وفوائد هذه المبادلات بالنسبة للفرد هي كما يلي :

	الدخل للحكومة بملايين الدولارات	حصة الفرد بالدولارات
المملكة السعودية	٢ر٧٦ مليون دولار	٠٨ر٧ مليون دولار
العراق	٩ر٣١ »	٢٥ر١٥ »
شرق الأردن	٠ر١ »	٦٣ر٢ »
فلسطين	٧ر٢ »	٤٠ر١ »
سوريا	١ر٤ »	٢٧ر١ »
لبنان	٤ر٥ »	٧٧ر٤ »
الكويت	٥ر٢٤ »	٠٠ر٣٠٦ »
البحرين	٦ر٦ »	٠٠ر٥٥ »
القطر	٥ر٠ »	٢٥ر١٩ »
بعض الأمارات الصغيرة	٥ر٠ »	٢٥ر٦ »
مواقع أخرى	٥ر١ »	—

وفضلاً عن ذلك يصرف مبلغ ٠٠٠ر٠٠٠ر٥٠ دولار سنويًّا في تلك المناطق للموظفين الأجانب في شركات البترول ، وهي عبارة عن منح ومكافآت استثنائية . . . الخ ، وبذلك يرتفع مجموع فوائد المبادلات الخارجية الى ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٠٠ دولار سنويًّا على ما يعتقد رجال هذه الهيئة . وهكذا يصبح متوسط فوائد المبادلات الخارجية السنوية للفرد ١٠ر١٢ من الدولارات أو ٢٠ر٦ من الدولارات ، هذا إذا شمل التقدير مصر التي لا تنتفع من هذه الأموال انتفاعاً مباشراً .

(ترجما عن الانجليزية) وليم أمبن

فضائل الماسونية

لا حرية ، ولا اخاء ، ولا مساواة

الماسونية كما فهمناها هي جمعية يقال أنها سرّية . ونحن نعلم ألاّ سرّ عظيم الشأن فيها أو مفيد للبشرية والحضارة سوى علامات الدرجات ومؤامرات سرّية مختلفة الأغراض . وفيما سوى ذلك فهي في دعوى أصحابها جمعية انسانية تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر . هاتان الوصيتان من مزايا القرآن والأنجيل ، ومن مبادىء النصارى والمسلمين . فإذا لم يكن للماسونية تعليم آخر أفضل من هذين التعليمين فلا لزوم لها . واذا كان الانجيل والقرآن لم يرقيا الروح الانسانيـة في البشر فتعاليم الماسونيـة لا تستطيع أن ترقي البشر في الفضيلة والانسانية . بعد محمد (صلعم) ويسوع لم يبق لزوم لرسول ولا لمسيح لأن التعاليم الدينية التي دخلت على البشرية منـذ بضعة آلاف من السنين الى الآن لم تعد تحتمل الزيادة . فقول كنفوشيوس « اعمل للنـاس ما تريد أن يعملوه لك » ، وقول يسوع ابن مريم « لا تفعلوا في الناس ما لا تريدون أن يفعلوه فيكم » ، وقول النبي محمد بمثل هذا المعنى — في هذه الأقوال فصل الخطاب . وبعد هذه الأقوال لم يعد لزوم لقول آخر . لو كان الناس يعملون بهذا التعليم بكل معناه تماماً ، لـكان العالم منـذ نشأ وتحضر الى اليوم ، فردوساً أنعم من فردوس آدم وحواء . ولـكن ما نفع التعاليم والناس يعلمون ولا يفعلون . فالبشرية لا تحتاج الى تعاليم ، وإنما تحتاج الى ضمائر تعمل بمقتضى التعاليم .

اجتمع مرّة قسيس انكليزي بغندي رحمه الله . وفيما هما يتحادثان قال القسيس لغندي « تـكلمني كأنك مسيحي » . قال : « نعم . أنا مسيحي » . قال « لماذا لا تعلن مسيحيتك » قال . « هـذه ديانة لا تعلن بل يعمل بهـا » . فليست العبرة بالانتساب الى الدين بل العبرة بالعمل بمقتضى الدين .

وغرضي أن أقول ان العالم لا تنقصه ديانة ولا جمعية تعليمية وإنما تنقصه قوة سموية تغير قلوب البشر لـكي يحبوا بعضهم بعضاً ولا يقاتلوا بعضهم بعضاً : لأنه ما من واحـد منهم يريد أن يقتله أحد فلا ينبغي أن يقتل أحداً .

اذا كانت الماسونية تعلم بالفضيلة والانسانية وعمل الخير والسعي الى السلام فلا لزوم لها ،

فقد سبقها أنبياء ورسل وعلموا بهذا وعملوا، وأحـدهم أثبت تعاليمه بدمه. فان كان عند الماسونية تعليم جديد أصلح للبشرية من تلك فلتعلنها للناس ولا تدعها سرّية. لأن التعليم الصالح لا ينفع إلاَّ معلناً.

* * *

الماسونية بدعة يهودية لأغراض خاصة باليهود هيَ واسطة لا غاية. ابتدعت بدهاء فائق. وصُبغت بصبغة السرية لـكي تستهوي الناس، لأن الناس بطبيعة نفوسهم يبتغون أن يعرفوا الأسرار. فدخل فيها الخاصة كالعامة حتى الحكام والملوك دخلوا فيها لـكي يعرفوا أسرارها وقد غرّ الماسون الناس بها بقولهم بأنها تأمر بأن يكون أناسها إخواناً متعاونين متصادقين ومتساويين كبيرهم كصغيرهم. والوضيع يغتبط حين يقول له الرفيع يا أخي.

ولما كان محفل نيازي (الذي لم يعش طويلاً) في القـاهرة يحتفل بتأبين الملك ادورد السابع كان الاخوان مغتبطين أي اغتبـاط حين كان الأستاذ وهو يؤبن يقول «أخونا ادورد» (لا ملك، ولا جلالة المغفور له الملك)

فهم اخوان بالـكلام فقـط، وبالواقع، الوضيع باقٍ وضيعاً، والرفيع باقٍ رفيعاً. ذاك يسكن في «البدرون» أي تحت الطبقة الأولى وذاك يسكن في أعلى القصور. وذاك يمشي على رجليه، وهذا يركب السيارة في الشارع العريض ويذعر المشاة بزمّارته المنذرة بالدهس

إن آية «الحرية والاخاء والمساواة» التي جعلتهـا الماسونية شعاراً لها فتنت الناس السذّج فظنوا أن في الماسونية سعادة الاخوان. وزادهم اغتراراً بها وغروراً أنهم يحسبون الأخ الماسوني نصيراً لأخيه الماسوني، وأن الماسونية تؤيد السلام والحق والعدل. ولكن عند التحقيق يظهر أن هذا الـكلام أجوف. وإنما كان يستغلّـه بعض اليهود ويتوسلون به الى الـكسب، وعندنا شاهد، ان ثريّـاً مصريّـاً غرّر به الطليان الماسون وجعلوه أستاذاً أعظم وثمّ استنزفوا ثروته

ومنذ ظهرت الماسونية جمعية ناشئـة الى الآن ما رأينا منها عملاً إنسانيّـاً عظيماً ولا عملة سياسية ولا خدمة نافعـة للجنس البشري في حين أنها مستغرقة كل الجنس البشري. كان في إمكانها وهي تسـيطر على الـكبير والصغير وعلى الملك والوزير وعلى الغني والفقير أن تمنع الحروب. بل بالعكس رأينـا جميع الثورات والحروب الأخيرة في القرن الماضي والقرن الحاضر قامت بدسائس ماسونية. وكان أبطال هذه الدسائس ماسونيين منذ حرب السبعين الألمانية الفرنساوية، الى الإنقلاب العثماني، الى الحرب الـكبرى السابقة، الى ثورة الإنقلاب الروسي ونشوء الشيوعية، الى المسألة الفلسطينية الى الحرب الأخيرة العظمى —

كل ذلك كان بدسائس يهودية ماسونيـة والغرض منها إنشاء دولة صهيونية تنمو الى أن تسيطر على جميع العالم .

وأخيراً ظهرت الصهيونية ممتطية الماسونية . والصهيونية قديمة من عهد سليمان وقد تمخض بها الزمان أخيراً فولدت دولة إسرائيل . ولولا هـذا الغرض لما كان لها وجود ولا لزوم . وكان مخترعوها مهرةً شطّاراً فجعلوها بشكل يعم كل العالم لـكي يكون كل الناس خدامها وهم لا يدرون . فأدخلوا فيهـا الحكام والساسة العظام وكل من كان ذا نفوذ دخلوها بطلاء الحرية والاخاء والمساواة وهي كلمات تغر وتسـتهوي وادعوا أن غرضها انساني بحت . وبهـذه الخدعة استهووا كبار الناس وطووهم فيها . وما أدرك الناس انها لخدمة الصهيونية الا لما ظهر الـكتاب السري الذي يشتمل على بروتوكولات الثلاث مئة شيخ من شيوخ اسرائيل في أواخر القرن الماضي، وفيه يصرحون بالصهيونية وباستخدام الماسونية لها . وعلى الرغم من انكارهم ان البروتوكولات مزيفة ومدسوسة عليهم دسًّا فقد برح الخفاء وظهرت الحقيقة وهي أن الحركة الصهيونية قديمة جدًّا ، وغرضها تحين الفرص لانشاء دولة اسرائيل الشاملة. وقد اثبتوا الماسونية لهذا الغرض ونجحوا

ثم قرروا الفكرة الشيطانية وهي أن يستخدموا جميع الأمم والناس لغرضهم هذا من غير أن يدروا . ولكن بعد ذلك تشتتت اليهود مراراً إذ غزاهم الرومان وغيرهم . فصاروا كلما غُزوا مرة ازدادت صهيونيتهم صلابة، ولكي تقوم لها قائمة اخترعوا الماسونية .

ولما نجحت الماسونية بعض النجاح أو كله جعلوها ٣ فرق (كما يقـول السيد يوسف الحاج اللبناني الأستاذ الأعظم الحائز على درجة ٣٣ وهو مندوب سام على شروق (محافل) سوريا ولبنان وفلسطين والعراقين)

الفرقة الأولى الماسونية الرمزية العامة وهذه مباحة لمن يروم أن ينتظم فيها من الناس على اختلاف جنسياتهم وأديانهم وسياساتهم .

والثانية الماسونية الملوكية المعروفة بـ « العقد الملوكي » وهي منفصلة عن تلك ، وفي الوقت نفسه مرتبطة بها ارتباطاً لا يفهمه الا الراسخون بالعلم الماسوني . هذه ماسونية تصدر تعليمات وأوامر تنفذها الماسونية الأولى من غير أن تدري مصدر هذه الأوامر ومآلها .

الماسونية الثالثة هي الماسونية الـكونية وهذه أكثر سرية من الأخريين . وهي تملي الارادة العليا . ولا يدخلها الا النفر القليل . وربما لم يعرف بها غير أعضائها . تستخدم الماسونيين الأخريين لانشاء الفوضى في العالم على قاعدة فرّق تسد ليستطيع اليهود بواسطتها أن يعودوا الى صهيون .

فوارق

الانوثة والذكورة وأسبابها ونتائجها

دعنا من الفارق الجنسي فهناك فوارق في البنية وفي الوظائف كبروز ثديي المرأة وعدم الشعر في وجهها وملاحة وجهها وعكس ذلك في الرجل الى غير هذا . أهم الظاهرة منها الحجم والقوّة البدنيين . ففي الجماعات البدائيـة كأهل أستراليا الأصليين ، قامة المرأة المتوسطة أقل من قامة الرجل المتوسطة نحو ١٢ سـنتيمتراً وخمس تقريباً . طول المرأة ٩٤ بالمئة من طول الرجل . وأما من حيث الوزن فالفرق أكثر . الرجل المتوسط يزن ٥٧ كيلو والمرأة المتوسطة تزن ٤٥ كيلو تقريباً (٤٤،٨) ، يعني المرأة تزن ٨٧ بالمئـة من وزن الرجل .

لا يقارن الإنسان وأشـباه الإنسان من حيث القامة . ولـكن يُقارنان من حيث الوزن . الشمبانزي يقارب الإنسـان من حيث الحجم والوزن . الشمبانزي الذكر البالغ يزن من ٦٠ الى ٦٥ كيلو . الأنثى من ٤٥ الى ٥٠ . الفرق في الغورلا أكثر جدًّا من هذا . الأنثى البالغة تزن نحو ٧٢ كيلو ، في حين أن الذكر يزن ضعفين أو ثلاثة أضعاف وأحياناً أربعة أضعاف .

الفرق في الأوران أوطان أقل مما هو في الغوريلاً : ولـكنه أكثر جـدًّا مما هو في الشمبانزي . أنثى الجيبون أطول من الذكر . ومتوسط وزنها ٩١ بالمئـة من متوسط وزن الذكر

أهم من فروق الحجم والوزن فروق وزن الدماغ ، أو بالأحرى فروق حجم الجماجم التي تحوي الأدمغة إذا تعذر وزن الدماغ . فلنأخذ نموذج من أدمغة الأوربيين الحاليين . وزن دماغ الذكر المتوسط ١٤١٠ جرام . ووزن دماغ الأنثى المتوسط ١٢٥٠ جراماً ، أي أن دماغ المرأة ٨٨،٦ بالمئـة من دماغ الرجل . وأما في الزنوج فعلى الرغم من أن الدماغ أصغر فالنسبة بين الجنسين كما هي في الأوروبيين .

وإذا رجعنا إلى أهل أستراليا الأصليين باعتبار أنهم يمثلون الإنسان البدائي فلا يعتبر وزن الدماغ بالجرامات ، بل تعتبر سعة وعاء الدماغ بالسنتيمترات المربعة . فسعة جمجمة الرجل

المتوسطة ١٢٨٧ سنتيمتراً . وهي تتراوح بين ١٠٤٠ و ١٦٣٠ س.م . وسعة جمجمة المرأة المتوسطة ١١٤٥ تتراوح بين ١٠١٠ س.م و ١٢٨٠ س.م .

ولنأخذ الشمبانزي كنموذج لأشباه الإنسان نجد أن متوسط سعة جمجمة الذكر ٤٢٠ س.م ، والأنثى ٣٩٠ س.م . بالإجمال والاختصار الذكر بحجمه ووزنه أرجح على الأنثى حتى بقوته . هو كذلك في أشباه الانسان وفي الانسان البدائي

* * *

الصبي يكون صبيًا منذ ينشأ في البويضة الملقحة ، وكذلك البنت . فاذا تقدمنا الى سن البلوغ نجد عوامل مختلفة هامة تعمل في الجنسين . فاذا نزعت الخصيتان من الصبي يتغير نمو الجسم والعقل معاً . فصوته لا يخشن . فاذا كان من الجنس ذي الشعر الغض فلا تنمو في ذقنه لحية ، ولا ينمو الشعر في العانة . وجلده يتغير، لا يخشوشن وتضؤل فيه صفة الرجولية . وعظامه تتغير في الشكل والاستطالة . لا يعود يكترث بالنساء ويفقد الغيرة الجنسية وروح النزاع والقتال .

لماذا يحدث نزع الخصيتين فقد خواص الجنسية، بل يفضي الى ظهور ظاهرات أخرى فيها ؟ فهو معلوم ان المواد الكيمية المسماة « هورمون » (١) التي تتدفق من الغدد الصمّ . فاذا انقذف هورمون الخصيتين الى الدم فلا يفعل توًّا في الحلقوم بحيث يضخم الصوت ، وفي الجلد بحيث يخشوشن، وفي الشعر بحيث يتكاثف، وفي العضل بحيث يقوى، وإنما يؤثر فيها بفعله في الغدة النخامية ، وهي الينبوع الرئيسي للهورمونات التي تنظم نمو الخواص التناسلية وسائر خواص الجسم المتعلقة بها . فاذا أزيلت الخصيتان فالنخام ، وقد خرج من تحت سيطرة هورمونهما ، يتغير تركيبه الكيماوي وتأثيره . وهكذا يرجع عدم نمو خواص الجسم الثانوية الى تقصير فعل الغدة النخامية .

وقد يلوح لنا أن التغير العقلي يرجع أيضاً الى تقصير النخام ، لأن الغدة النخامية متصلة مباشرة بالمركز الجنسي التناسلي في الدماغ .

أما تأثير ازالة المبيضين في خواص المرأة فأقل من تأثير ازالة الخصيتين في الصبي . ونحن نعلم ماذا يحدث للفتيات كنتيجة لتأثير بعض الأمراض، من أنه يطرأ على بنيتهنّ ما يغير

---

(١) ترجموا الهورمون بكلمة تور . ومعنى الهورمون مادة كيمية تفرزها الغدة الى الدم فتدور معه الى أن تمر في الذي قدر لها أن تفعل فيه . فاذا استعملنا كلمة تور بدله فلا يرى الباحث في المعجم هذا المعنى بل يرى كلمة رسول أو أناء للشرب . فلا يفهم القارىء منهما معنى الهورمون بتاتاً . واذا كتبنا « تور » اضطررنا أن نفسرها بلفظ هورمون

الهورمون بحيث يجعله أقرب الى الذكورة منه الى الأنوثة ، فتظهر في أجسامهن أعراض هذا الهورمون (الذكري). فلا يستميلهن الفتيان، وتزول منهن العواطف النسوية وعواطف الأمومة ويفقدن جميع أميال المرأة .

بعد هذا التفسير لفعل الهورمونات الذي يؤثر على الأعضاء الجنسية وعلى أعراضها صرنا نفهم سر السجايا الأنثوية والسجايا الرجلية، صرنا نفهم أن سبب الحياء والدعة والوداعة والحشمة في المرأة هو الهورمونات التي ترد من غدد المبيضين ، كما إننا صرنا نفهم أن الاسترجال الذي يظهر في بعض الأناث سببه فقدان هذه الغدد أو طروء بعض العوامل التي تضعفها أو تغيرها أو تقلبها الى شبه الغدد الذكرية فتفرز هورموناً ذكرياً أو شبهه .

لا يخفى على القارىء ان كثيراً من الظواهر في الجنسين الذكر والأنثى إنما هي من مفاعيل الهورمونات . وشذوذ الأخلاق يتوقف عليها ، وبالتالي على الغدد نفسها . كاسترجال المرأة أو تخنث الرجل . والمرأة السليطة والرجل الجبان كلاهما مديونان لفعل الغدة الجنسية التي تسيطر بهورمونها على الغدة النخامية التي هي مدربة أكثر وظائف النمو في البدن .

—:—

التسمم بالفيتامين

قد يتسمم الأطفال بالفيتامين من غير أن تفطن أمهاتهم إذا كن يعطين الأطفال من مركز ٣ أنواع من فيتامين A. B مقادير كبيرة ومدة طويلة . فقد حذر الدكتور «كافي» الأمهات من هذا الإسراف في اعطاء الأطفال هذا الفيتامين — حذرهن في محاضرة قيمة ألقاها في كلية الطب والجراحة في جامعة كولومبيا أمام جمعية رونتجن الأميركية .

قال : ان الأطفال يقاسون ورماً مؤلماً في الأقدام والسواعد على الخصوص . والحركة تقل، وتظهر عند الأطفال حساسية شديدة وتهيج ظاهر . وإنما إذا بطل إعطاء الفيتامين زالت هذه الأعراض عاجلاً .

وخطأ الأمهات أنهن متى يشرعن يعطين الفيتامين للأطفال فلا يعطينه بمقدار معين نقطة فنقطة، بل يسكبنه من القارورة رأساً بلا حساب . ولذلك يتخطين الجرعة القانونية على ظن أن الفيتامين ليس سماً . والمثل السائر إن الزائد أخو الناقص . حتى الأكل المغذي إذا كان كثيراً أحدث تخمة فمغصاً فسوء هضم . على أن الأمهات يحسبن الفائدة بالكثير منه . فإذا كانت الجرعة الصغيرة تفيد الطفل ، فالجرعة الكبيرة أفيد . وبهذا الاعتبار ترتكب الأم الضرر من حيث تبتغي الفائدة .

باب الزراعة والاقتصاد

الجراد وكيف يمكن التخلص من غوائله

جاء في الانباء البرقية من لندن في ٢٢/٦/٤٩ ما يأتي : —

اكتشف حديثاً في شرق بلاد العرب سرب كبير من الجراد . وقد تلقى الدكتور أوفاروف رئيس مركز مباحث الجراد في لندن تقريراً في شأن هذه الحشرة الجائحة وذلك من أحد المراكز الصحراوية . ولا يزال الدكتور أوفاروف يترقب تفصيلات جديدة في هذا الصدد . ولكنه يرى في الوقت نفسه أن هذا السرب الجديد يعد خطراً بالغاً يهدد الشرق الاوسط عامة. والمعروف أن الموضع الذي ظهرت فيه أرجال الجراد هو الربع الخالي. ثم نصح بمقاومته هناك عاجلا :

الجراد لغة — دويبة تجرد الأرض من النبات . وهي صنفان هما الطيار الذي يطير غالباً ، والزحاف . وجرد الأرض — صيّرها جرداء أي لا نبات فيها .

وقمع الجراد معضلة من المعضلات الدولية الشداد ، عريقة في القدم كالحضارة على السواء ، ولكنها لم تبلغ شأواً جدياً في أي عصر كان من العصور ، ما بلغته الآن . ولا غرو فإنه على قمع هذه الآفة وحدها ، عن الزراعة ، قمعاً أشدّ منه لغيرها من الآفات الزراعية ، يتوقف الظفر بمنع كارثة عجز المواد الغذائية عن سدّ الحاجات العالمية . وليس الغرض من هذه المناهضة وقاية الحاصلات الراهنة ، فضلاً عن التخلص من خطر الجراد في المناطق التي سبق استغلال المواد الغذائية من أراضيها ، بل إن هذه الأمنية نفسها ، يراد بها قطع شوط عظيم الى الأمام ، والحصول على زيادة جزيلة في استغلال المواد الغذائية النافعة .

ولا يتاح تفريج الأزمة الغذائية العالمية ، بوجوب زيادة حاصلات المناطق العادية الحالية التي تنتج هذه المواد الغذائية ، وحدها ، بل باستصلاح الأراضي البور الواسعة النطاق أيضاً ، ليستعان بخصبها المنشود ، على إنتاج الغلات ، وما تدرّه من عميم الثروات والخيرات لمون المخلوقات وأقواتها . ويقع هذا الضرر ، أي آفة الجراد ، كذلك في حالة تحويل الغابات ، أو الغياض أو الصحراوات أو المستنقعات ، الى أراض زراعية تنتج الحاصلات . ذلك لأن التغييرات التي تجعل هاتيك الأراضي المجدابة ، مخصابة ، هي عينها التي تصيرها أجود مرتع لتوليد الجراد والنطاط وتربيتهما فيها .

والعقبة الكؤود التي كانت في غابر الأزمان، تحول دون مكافحة أرجال الجراد هي الآن، كما كانت عليه دائماً، توافر المال اللازم لتنفيذها. وتقترن هذه العقبة بمشكلة أخرى، هي تغاضي الحكومات المختصة، عن متابعة بذل مجهوداتها في محاربة هذه الحشرات الفتاكة بالمزروعات. ذلك إننا ما برحنا نرى أولي الأمر فيها، عندما ينتصرون على ذلك العدو الجائح الذي يهدّد ثروات البلاد الزراعية بوجهٍ عام في أي عصر كان، لا يلبثون أن ينسوا أو يتناسوا واجباتهم حياله على الدوام.

فيتعذر على ناصحيهم اقناعهم حينئذٍ بضرورة الدأب في انفاق الأموال في سبيل استنباط أنجع الوسائل التي تجنبهم غوائل الجراد فيما بعد.

ومن أغرب المعتقدات البالية الخاطئة قول أولئك القوم (إن الجراد شر مستطير، ليس منه مفرّ، فلا خير في الوسائل التي تتخذ لمنعه إذ أنها لا تجدي نفعاً إلاّ حين قدومه أرجالاً دفعة واحدة) ولكن حالما يزول خطرها الداهم (أي الآفة) تعقبها عندهم آمال خائبة لا مبرر لها، من كل الوجوه، هي ظنهم أن تلك الغزوة الجرادية المشؤومة لن تتكرر أو على أقل تقدير، لن تستأنف في عهدهم، فيهملوا أمرها ويظلوا مكتوفي الأيدي إزاءها حتى تفاجئهم قارعتها مرّة أخرى وهم نيام.

وفي هذا الصدد يقول پ ـ ب. كولينز P. B. Collins العالم الانكليزي الذي نقلنا عنه هذا البحث النفيس «إن هذا التفاؤل الذي لا أساس له يستند إليه، إنما هو الذي ينبغي لنا أن نعدّه مصدراً أصليًّا لعودة جماعات الجراد الرهيبة لشن غاراتها الجائحة المتواصلة، في غابر القرون جميعها»

أما في بلدان أفريقية وآسيا فقد يصحُّ القول إن وجهة الرأي هذه قد جعلت ولاة الأمور يقلعون عنها. ومعظم الفضل في ذلك الرشاد، يرجع الى النتائج الباهرة التي فازت بها الحملات الحديثة الرائعة التي شنت هناك على أرجال الجراد الفظيعة. ولكن في بلاد أمريكا الجنوبية، على أقل تقدير، يخيّل الينا أن نتائج استئصال شأفة الجراد هناك لم تكن مرضية. وما زالت مبالغ باهظة من الأموال تُنفق، وجمُّ الجهود تبذل، على نطاق واسع لمناهضة جيوش الجراد التي تهدد هاتيك الأرجاء الواسعة.

نتائج قمع الجراد في بلدان أفريقية

وقد أسفرت الأعمال الأساسية التي قام بها المسئولون هناك، للوقاية من غارات الجراد، على المزروعات في أنحاء أفريقية، عن فشلها. وذلك في لفت أنظار ولاة الأمور،

الى تنفيذ الوسائل الفعالة للقمع . ويبدو لنا أن ذلك الاخفاق كان مبعثه ، ضعف التعاون بين عمال الحقول وغيرهم من الفنيين الذين يعملون في معاهد الأبحاث العلمية . على حين أن هذه المعاونة غدت شرطاً لازماً لنجاح هذه المهمة في آفاق أفريقية والشرق الأوسط .

التعاون في الكفاح ضد الجراد

هو سرّ النجاح وغاية المراد

ووصف الدكتور أوفاروف Dr. Uvarov مدير مركز مباحث إبادة الجراد في لندن ، الحملات الشديدة الوطأة التي شنتها الدول على الجراد ، عدوها المشترك ، وشدد على ولاة الأمور بوجوب مواصلة التعاون الدولي في هذه الحرب الضروس كما يأتي :

« لا جدال في القول إن المجاعات التي كان مصدرها الجراد ، قد تفشت في أرجاء بلاد الهند والصين وغيرهما من الدول . وفي أمريكا الشمالية ، كان المستعمرون الأوائل يشنّون الغارات الشعواء على أرجاله ، اتقاءً لشره . وفي أفريقية كان الجراد وما زال آفة جائحة تهدد المزروعات شرّ التهديد »

كيف نجحت غزوة الجراد في شبه جزيرة العرب ؟

« كان الجراد في العصور الغابرة ، يتربى ويتوالد في المناطق الصحراوية حيث لا يناوئه أي مناوىء كان . أما في العهد الحالي ، فقد قرر الثقات ، ان غزو مواطنه تلك ، خير من التريث حتى يفاجىء بأرجاله ، المزروعات ، التي تبعد عنه مئات الأميال . وكان الغرض من هذا القرار ، قبل كل شيء ، أن أعمال القمع يجب أن تتناول بلاد العرب . ذلك لأن شبه تلك الجزيرة ، طبقاً لموقعها الجغرافي ، يجعلها قاعدة صالحة للغارة بأسرها . لأن أرجال الجراد التي تتوالد هناك خطر مقيم ، ليس على الأقاليم الخصبة ، التي على شكل « الهلال » التي في الشرق الأوسط فقط ، وهي تشمل دلتا النيل ، وفلسطين وسوريا والعراق وايران ، بل على ما هو أبعد منها ، أي بلاد الهند والجمهورية السوفياتية في آسيا الوسطى ثم شرق أفريقية .

ومن حسن الحظ أن الوالي الحازم الحكيم ، جلالة الملك عبد العزيز بن السعود ، قد بادر الى الاعتراف بنفع قمع الجراد من بلاده ، حيث تضؤل المزروعات ، ولكنها أثمن شيء لدى رعاياه . وبناءً على أمره أعدّت فرق صغيرة وزودت بالسيارات فدخلت بلاد العرب سنة ١٩٤٣ . وكان غرضها الأصلي الاستطلاع ، ثم اكتساب الخبرة في الغارات الصحراوية .

فظفرت بنتائج سارة جداً . فقامت في شتاء ١٩٤٣ — ١٩٤٤ لشن الغارة الأولى على الجراد في هاتيك البلاد . وكانت السلطات العسكرية حينئذٍ مستعدة لتقديم المعاونة اللازمة ، من وسائل النقل والموظفين الفنيين وورش الترميم المتنقلة ، وأجهزة التلغراف اللاسلكي وغيرها . فصارت هذه الحملة نسيج وحدها في كل من حجمها ومأربها . إذ قامت قوافل كبيرة من السيارات تزيد على ٣٥٠ سيارة وزهاء ألف جندي غير مسلحين . فولجوا تلك البلاد من ناحيتين ، حيث انفصلوا بعضهم عن بعض ، فصائل شتى متأهبة لمكافحة الجراد .

وعهد في قيادتها الى عشرة خبراء من الضباط ، من ست جنسيات ، هي البريطانية ، والأمريكية ، والمصرية ، والهندية ، والسودانية ، والفلسطينية . وزودتهم حكومة جلالة الملك ابن السعود ، بأدلاء يرشدونهم الى مسالك صحراء بلادهم ثم يقومون لديهم مقام ضباط اتصال بين هؤلاء الضباط محاربي الجراد ، وبين ولاة الأمور السعوديين المحليين . فقاموا جميعاً باستطلاع واسع النطاق في مناطق مترامية الأطراف ، لم تقطع بعضها أية سيارة كانت من قبل ، حيث تبين لهم أن الجراد النطاط كان ينتشر انتشاراً متقطعاً في مساحة تبلغ نحو ٥٠٠٠٠ ميل مربع . فنشروا فيها ١٢٠٠ طن من الطعم السام ، فحصلوا بها على التأثير المنشود » .

ممّ يؤلف الطعم السام للجراد ؟

يؤلف الطعم السام للجراد ، من نخالة مبللة بمحلول خفيف من الزرنيخ ، يرش على الأرض التي يزحف عليها الجراد ، رشاً خفيفاً بالأيدي ، فيؤثر الجراد ذلك الزاد على الخضرة المزروعة هناك ، فيموت عقب التهامه ، بيوم أو يومين . وقامت الطائرات أيضاً برش الجراد بالمواد المبيدة للحشرات فحصلت على نتائج طيبة .

مخاوف الحملة وأوهام العرب

وكان أشد الجزع يخالج القوات المزمعة إبادة الجراد هناك . وذلك عند شروعهم في أعمالهم ، خوفاً من موقف السكان إزاءهم . ولا غرو فقد اعتاد الأعراب حسبان الجراد قصاصاً إلهياً ينبغي ألاّ يقاوموه بتة . وكان شأنهم في ذلك كشأن كثيرين من أهل الشرق الجامدين . فلم يجرؤوا قط على مقاومته والتخلص من ضرره.

ومع ذلك فإنهم ما كادوا يبصرون جماعات الجراد النطاط تزحف نحو مزروعاتهم المحبوبة ، قصد احتناكها (١) ، قد استؤصلت عقب التهامها السم الحشري المشار إليه

---

(١) احتنك الجراد الارض — أكل ما عليها وأتى على نبتها

الذي أُعدَّ لإبادتها ، قبيل بلوغها أمانيها التي كانت تنشدها ، حتى تغيرت مخاوفهم الوهمية . فكانت هذه النتيجة السارة ، كفيلة ، بمحو ذلك الوهم العتيق الرهيب الذي كان متسلطاً على أذهانهم . وبلغ من اعجاب جلالة الملك ابن السعود وأولي الأمر في دولته بحسن النتائج أن جلالته غدا يثق ملء الثقة بمنافع مهمة البعوث البريطانية مبيدة الجراد . فضلاً عن كونها أفادت كل الفائدة في خفض عدد أرجال الجراد التي كانت تهرب من بلاد العرب وذلك في ربيع سنة ١٩٤٤ الى الأقاليم الأخرى . فلم يلحق أي دولة من الدول الواقعة في شمال شبه الجزيرة العربية ، أي هجوم كان من هذه الحشرات المشؤومة في السنة نفسها . ثم إن تلك الغارة الشعواء أسفرت عن نتيجة باهرة جداً إذ اكسبت الذين قاموا بها خبرة واسعة في قمع الجراد في الصحراء .

وكانت هذه الخبرة حافزاً للمسؤولين ، على الاضطلاع بتعبئة حملة أخرى في شتاء ١٩٤٤ — ١٩٤٥ إذ أيقنوا بأن الفوز سيكون حليفاً لهم . ولكن مما يؤسف عليه أن وسائل النقل اللازمة لهم لم تكن متوافرة حينئذٍ ، إذ استحال على ولاة الأمور العسكريين تقديم جميع ما طلبته البعوث منها ، فأُعيد تنظيم أعمالها وحصرها في نطاق محدود .

ومع ذلك التقصير كانت النتائج حميدة مرة أخرى . ولو أن هجوم الجراد في هذه المرة كان أعنف منه في سابقتها ، خلافاً لتقديرات المسئولين وقتئذٍ .

مزايا الغزوة للعرب

وقد تميزت هذه الغزوة بمزية عظيمة مفيدة ، هي ضخامة عدد السعوديين الذين اشتركوا فيها ليس كمرشدين وحمال فحسب ، بل كقادة للسيارات وملاحظين لفرق العمال وميكانيكيين . ومن ثمة توثقت العلاقات الودية الطيبة بين أعضاء هاتيك البعوث البريطانية وبين ولاة الأمور المحليين والأهالي ، واستتبت على أساس متين .

وفي تلك الفترة شُنَّت غارات من هذا القبيل ، كان بعضها أوسع نطاقاً مما حدث في تينك الغزوتين . وذلك في بلاد الهند والسودان المصري والولايات الايطالية السابقة في شرق افريقية، وفي أثيوبيا وكينيا وتنجانيقا وشمال أفريقية وغربها الفرنسيين .

قاذفات القنابل تهاجم الجراد

وقد نجحت استراليا في سنة ١٩٤٧ في مكافحة أرجال الجراد التي سطت على مزروعاتها. وكانت تضطلع بهذه المهمة طائرات من قاذفات القنابل، عهد اليها في رش المواد المبيدة للحشرات، وذلك على الأراضي التي كان الجراد يفقس عليها. وكان الفلاحون هناك يساعدون هاتيك الطائرات بمرشات يدوية وآلية مسترشدين بارشادات علماء وزارة الزراعة الأمريكية، فبلغت نسبة الجراد الذي أهلك بهذه الوسيلة ٩٠ ٪ من مجموعه، وأنقذ بتلك الطريقة نفسها من محصولات الحبوب ما قدر ثمنه بملايين الدولارات.

وكان السلاح الجوي الاسترالي يقوم بالمعاونة على هدى الوسائل الفنية التي حذقها أعضاؤه في الحرب العالمية الثانية. وذلك عند استيلائهم على مواقع الأعداء الساحلية المحصنة التي قام السلاح بتطهيرها من جراثيم الملاريا.

وقد اخترعت لهذا الغرض رشاشات خاصة تملأ بالجامكسين الممزوج بزيت ديزل. إذ تبيَّن لهم بالاختبار أن الرشاشات المعتادة كانت ترش قطرات من المواد المبيدة للحشرات أكثف مما كان ينبغي. فحازت تلك الحملة التي شنت على أرجال الجراد، في هاتيك البلاد النائية، أقصى استحسان أهلها على بكرة أبيهم. إذ أنهم ما برحوا يذكرون متألمين كل الألم، الخسائر الفادحة التي لحقتهم من جراء أرجال الجراد التي احتلت مزروعاتهم في سنتي ١٩٣٤، ١٩٣٥.

وثبت أن مادة الجامكسين Gammexane أشد أنواع السموم لابادة الجراد ولو كانت نسبتها ضئيلة جداً لا تزيد على $\frac{٦٥}{١٠٠٠}$ في المزيج الفعال. وهي لا تؤذي المواشي بتاتاً، خلافاً للمواد الزرنيخية التي كانت مستعملة قبلاً لهذا القصد. وللجامكسين يرجع الفضل في النجاح الحديث الذي أحرز في أنحاء شبه جزيرة العرب وشرق أفريقية. أما أرجال الجراد اليافعة الطيارة فتستعمل لابادتها وسائل أخرى. وتذاع أخبار حركات أرجال الجراد وتوالدها اذاعات منظمة من الدول المصابة، الى لندن، وذلك بالتلغراف والتلفون السلكيين واللاسلكيين وبالطائرات أيضاً. ومتى وصلت هذه الأنباء تراجع هناك وتوضح على خرائط مرسومة على مقاييس كبيرة. ويقوم الخبراء بتحليلها تحليلاً مدققاً، ثم مقابلتها بخرائط أخرى مصطلح عليها تبين الحركات الجرادية الخاصة بفصول السنة ليتأهب المختصون لقمع جماعات الجراد في حينها.

عوض جندي

مسائل وأجوبتها

الضمان الجماعي

س — قرأت لكم في بعض الجرائد غير مرة دعوة الأمم العربية الى التحالف الدفاعي، وأخيراً فهمت أنكم من الدعاة للضمان الجماعي. فهل تعتقدون بهذا المشروع؟ ألا تظنون أنه مشروع خيالي لا أمل في تنفيذه؟.

دمشق م. ص. ع

ج — نعم كتبت مراراً بهذا الموضوع في الجرائد العربية، ولو لم أكن أعتقد أنه مشروع عملي ما دعوت اليه ولا دعا اليه صاحب الدولة سياسيّنا الكبير الأستاذ فارس بك الخوري. فقد قرأت حديثاً له بهذا الموضوع مع مكاتب جريدة المصري (إذا صدقت الذكرى) أو بالأحرى صرخة به. ولو كان المشروع خياليًّا ما أجمعت دول أوربا الغربية عليه، ولا أنشأت له برلماناً في السنة الغابرة، ولا كانت أمم أميركا المختلفة اتحدت في ولايات أو دولات متحدة. فنحن لا ندعو الى خيال أو حلم في عالم الآمال، وانما ندعو الى مشروع عُمِلَ وانتشر وصادف الاقبال.

وأما إذا كان شككم فيه كمشروع حربي فقد يكون لكم عذر في هذا الشك، لأن الاتحاد العربي أو الجامعة العربية قد خيبت الآمال حين وصلت الى العمل الجدي. ولكن الحوادث التي مرّت والحوادث التي لا تزال تمر تنبئنا أن الخطر على الأمم العربية ليس خياليًّا، بل هو حقيقة راهنة، وهو على الأبواب ما دام الصهيونيون قد نجحوا نجاحاً باهراً. ومهما تلكأ العرب في ادراك هذا الخطر، فمتى بلغت السكين العظم فلا بد أن يدركوه. وإذا كانت النكبة التي نكب بها اللاجئون لم توقظهم لادراكها فلا أمل بأن يدركوها، وسينكبون بها عاجلاً أو آجلاً. وإذا أدركوا الخطر — ولا بد أن يدركوه حتماً — فحينئذٍ يلمون شملهم ويجعلون «الضمان الجماعي» لغرض الدفاع حقيقة واقعة فعلاً، لأنه لا ينقذهم من خطر الصهيونية إلاّ هذا المشروع.

وقد اجتمعت الجامعة العربية منذ شهرين وقررت بالاجماع هذا المشروع ودعت المندوبين العسكريين والسياسيين لدراسته. ولكن بكل أسف الى الآن لم يحدث أمر عملي بهذا الشأن. ولكن الصهيونيين لا يمهلوننا الى أن ندرس ونستعد. ولذلك لا يتأخرون عن تنفيذ خططهم، ولا يرتدعون عنها الاّ إذا رأوا العرب قد شرعوا بتنفيذ الضمان الجماعي. فهم لا يزالون يستعدون. ونحن ؟؟؟

حكومة عالمية

س — ما رأيكم في اتحاد جميع الأمم وتأليف أمة عالمية تحكمها وتديرها حكومة عالمية؟ هل هذا ممكن أو هو مشروع خيالي؟

م . ص . ع

ج — هذه كمسألتكم السابقة وهي تتراءى لقارىء أخبار المشكلات الدولية الحالية وتعقدها كأنها ضرب من الخيال يكاد يكون تحقيقها مستحيلاً . ولكن كلما تقدم العالم وتعقدت مشكلاته يرى أنه لا منقذ له من هذا الاضطراب الاجتماعي الذي جعل الناس في ما هو أخطر من الحرب — لا ينقذه من هذا الاضطراب أو القلق إلاّ أن تكون الأمم جميعاً مشمولة بحكومة أممية عامة .

ولا ريب أن جمع الأمم في أمة واحدة تحت حكومة واحدة مشروع صعب جداً يشبه المستحيل . ولكنه ليس مستحيلاً . فكما اجتمعت ٥٢ ولاية أو حكومة في أميركا تحت راية واحدة وحكومة عليا واحدة، يمكن أن تجتمع الأمم في أمة واحدة وتكون لها حكومة عليا واحدة .

وإنما يستلزم هذا المشروع العظيم أن تكون الأمم متقاربة كثيراً في شؤونها الاجتماعية والأخلاقية . يجب أن تكون لها أولاً لغة واحدة تتفاهم فيها وتتعامل بها . ثانياً أن تكون لها ثقافة واحدة بحيث يتسنى لها أن تتفاهم وأن تنصبغ في أخلاق متشابهة جداً . ثالثاً أن تكون متقاربة في عقائدها . وهذه أمور ليس سهلاً حصولها، وإنما هو ممكن بسبب سهولة المواصلات وانتشارها في جميع أقطار العالم .

لا يمكننا أن نتكهن عن الموعد الذي تحقق فيه هذه الأمنية . لا أظنه يتجاوز القرنين، ولكن العالم يقاسي كثيراً قبل أن يثوب الى رشده، ويلجأ الى هذا المشروع العظيم لكي يخلصه من الويلات التي ورثها من القرون الماضية .

ولكن مما لا ريب فيه إنه اذا توفق العالم الى أن يصير كله أمة واحدة ذات حكومة واحدة، تلافى الحروب الفظيعة ولا يبقى فيه إلاّ ثورات بين بني آدم كخلافات بين اخوان

—:—

الحنو الوالدي

س — هل الحنوّ الوالدي يشمل الأب والأم على السواء أم أنه في الأم أقوى منه في الأب؟ ولماذا؟

القاهرة : ص . م

ج — الحنوّ الوالدي يأتي عن طريقين : الطريق الأول جسماني والثاني دماغي . ففي الأم هو جسماني ودماغي . فهي تعطف على ولدها لأنها تعلم أنها حملته في بطنها ثمّ أرضعته من ثديها وحضنته كل أيام طفولته فتشعر انه قطعة منها، فهي تعطف على جزء

منها . فهذا عطف غريزي يشترك فيه الانسان والأعجم على السواء . أما الأم وهي ترضع طفلها وهو يمتص ثديها فتشعر بلذة فائقة تحرض فيها الحنوّ ، ولكن هذا ليس كافياً لتحريض حنوّها لأنها قد تجد مثل هذه اللذة أو بعضها إذا كانت ترضع طفل غيرها . فإذاً هذا الحنوّ لا يقتصر على كونه جسمانياً . فهي إذا كانت ترضع ولدها وتعرف أنه ولدها فشعورها يكون أشد مما لو كانت ترضع طفل غيرها . فإذاً هناك محرّض دماغي (عقلي) فضلاً عن المحرّض الجسماني .

وهذا الحنوّ الوالدي في البشر يشتد الى حدّ التضحية بالنفس لأجل الولد . وقد يبلغ الى هذا الحد في أشباه الإنسان كالشمبانزي والأوران وغيرها . بل يشتد حتى في العجماوات اللبونة ، والفقارية

وهناك محرض للحنوّ وهو العشرة . فقد يشتد هذا الحنوّ حتى للولد المتبنّى الذي تعرف الأم (والأب) أنه ليس وليدها ، ولكنها ربته منذ الصغر فصارت تعطف عليه كما لو كان إبنها من لحمها ودمها . أعرف زوجين تبنّيا طفلاً لأنهما لم يرزقا ولداً . ولكن بعد حين رزقا صبياً ، فبقيا يحنوان على الولد الأول مع الولد الثاني ، ولم يميزا الابن الحقيقي على الابن المتبنى بشيء لأن العشرة أكسبتهما هذا الحنوّ .

بقيت نسبة الحنوّ للأبوين جميعاً . فلا ريب أن الأم أشد حنوّاً من الأب لاعتبارات معروفة ومفهومة . ومع ذلك لا تقل تضحية الأب عن تضحية الأم لأجل الولد ، ولكن الأم أشد شغفاً من الأب كما نرى بالمشاهدة .

بقيت مسألة جوهرية وهي : هل في قلب الأم إلهام خاص يدلها على وليدها ؟ يعني إذا عزل الولد عن أمه منذ الطفولة ولم تعد تعرف عنه شيء ، ثم جمعها القدر به وهما لا يعلمان النسبة بينهما ، فهل يحسان أو تحس الأم على الأقل بعطف عليه ؟ هذا ما أشك فيه بل أرجح أو أؤكد أنها لا تهفو إليه ولا تنعطف ، حتى أنها بعد أن تعرف أنه ابنها ، فلا تعطف عليه عطف الأم الشديد لأنها لم ترضعه ولم تحتضنه ولم تربه ولم تعاشره .

وأعرف امرأة فارقت مولودها منذ زمان إذ طلقت زوجها . وبعد ذلك التقت بالابن وعُرفت به فلم تكترث به كثيراً كما ينتظر . كل هذا يعطي للادراك الدماغي الأرجحية في اكتساب الشعور العاطفي . ولا ريب أن الوالدين من ربّيا لا من ولدا .

وبالإجمال حنوّ الأب دماغي لاجسماني وحنوّ الأم دماغي وجسماني معاً . ولهذا يمتاز حنوّ الأم على حنوّ الأب .

مكتبة المقتطف

احسان لله وقصص أخرى

من لا يعرف الكاتب الكبير الأستاذ محمود بك تيمور قصصياً ممتازاً . وآخر ما صدر من دار المعارف بقلمه مجموعة قصص مستهلّة بقصة « محمد افندي صلي على النبي » هي عبرة للأزواج الأنانيين . فقد تزوّج محمد افندي مراراً وطلّق مراراً ولم يتوفق الى زوجة تكون له كل يوم عروساً كاعباً لأن شهوته كل يوم ناهد . فيهوى فيشبع شهوته ثمَّ لا يلبث أن يمل . وأخيراً رأى أنه لا يستطيع أن يرسو على حال إلاّ في الريف، فنزح الى أبعديته، وهناك تزوّج طباخته البنية الرخصة . فما لبث أن طلقها وهي على أهبة الوضع، وفرَّ من وجه الطفل والمرضع .

فالفن ليس في القصة فقط وإنما هو في وصف الحوادث وأسلوبه .

هذه قصة من عشر درجت في ٢١٧ صفحة، وكل واحدة منها ذات طراز خاص يأخذ بمجامع القلوب . وكلٌّ منها يمتاز بعبرة من عبر الحياة الإجتماعية .

قرأت هذه القصص جميعاً ولما انتهيت من القصة الأخيرة التي هي « حربٌ خاطفة » لم أمالك نفسي من الضحك . وما زلت أضحك إلى أن جئت أكتب هذه السطور . لله درّ تيمور فقد جعل الأرض من تحتي تمور إغراباً في الضحك ، وإعجاباً من هذا النمط في سبك القصص. فهنيئاً له وتحيّة .

—:—

همس الايام

مجموعة قصص بقلم الأستاذ عبدالله نيازي من خيرة كتّاب العراق . وهو يلم في هذه القصص بجانب من معضلات الحياة ، فيصفها وصفاً يجعلك تشعر إنها معضلتك ، أو معضلة قريبك ، أو صديقك . فتأسف حيث يكون الداعي للأسف، وتحزن حيث يكون الموجب

للحزن، وتفرح حيث يكون الحديث حديث الفرح والسرور، وتعجب حيث ثمة إعجاب. فهذه المجموعة من القصص مدرسة صغيرة للشباب يدرسون فيها بعض شؤون الحياة في طالع العمر. فنهنئه بإصابته الغرض الذي رمى إليه.

—:—

أسطورة ألف ليلة وليلة

ذكر لي مرة الدكتور شارل مالك وزير لبنان المفوض في وشنطون أنه رأى في إحدى المكتبات الكبرى في أميركا (وقد نسيت إسمها) واجهة واحدة مختصة بالمؤلفات المتنوعة عن كتاب «ألف ليلة وليلة» الذي يسمونه «الليالي العربية» من ترجمات وتعليقات وشروح. وكنت قد قرأت بعض فصول السندباد البحري من هذه الليالي وتيقنت أنها أساطير خرافية، فعلمت أن الذين ترجموا هذا الكتاب الى الانكليزية وغيرها يقصدون به أن ينقلوا شيئاً عن الأدب العربي يلم بحالة العرب الإجتماعية والأخلاقية.

لذلك رأيت أن أطالع هذا الكتاب لكي أعلم ما الذي فيه استهوى هؤلاء الأجانب لكي يولوه هذه العناية الفائقة.

وكنت أظنه يضاهي كليلة ودمنة في فكاهته وخياله ومغازيه الحكمية، فعبرته وصبرت على سخافته. وخرجت منه وأنا أراه مجموعة قصص خرافية تشهد بطول باع مؤلفه في فيض الخيال الغريب السخيف، تخيل لا يخطر ببال أحد حتى في الأحلام، ليس له نظير في أساطير اليونان أو الرومان حتى ولا في أساطير ما قبل التاريخ.

ما أشرف المؤلف في تخريفه على ورطة حتى اخترع لها نجاة منها لا تدهش لها أكثر مما تدهش لتصوُّره العجيب السخيف في هذا الإختراع. مثال ذلك: أن الهارب الخائف فيما هو هايم على وجهه يبتغي النجاة من التهلكة، رأى فلاحاً يحرث الأرض فطلب إليه ماء لكي يروي ظمأه. فأسرع الفلاح الى مكان بعيد لكي يأتيه بالماء، فاستحسن الهارب أن يقبض على المحراث في غياب صاحبه لكي يحرث بالنيابة عنه وألّا يضيع وقته سدًى. وإذا بالمحراث يصطدم بحديد في الأرض ويعلق به، ولا يمكنه أن يخلصه منه إلّا بأن يكشف عنه، فاذا هو عالق بحلقة من حديد مثبتة ببلاطة، فعالجها حتى رفعها، وإذا تحتها دهليز فنزل فيه ومشى الى قبو، وإذا في القبو صناديق وعلب من ذهب كثيرة ملأى بالجواهر الكريمة من زمرد وياقوت وعقيق ولازورد الخ. ورأى صندوقاً صغيراً ففتحه وتناول منه خاتماً

ذهبيًّا منقوشاً عليه كتابة لا يفهمها ، ففركه وإذا بمارد جنيّ يقف بين يديه وهو يقول « لبيك عبدك بين يديك » يا سيدي مر ، فأقضي لك في الحال ما تشاء . قال أريد بغالاً وجمالاً وجياداً تحمل هذه الصناديق ومعها عساكر تحميها ، وما هي إلاّ لحظة حتى سمع صاحبنا صهيل البغال والجياد وجعجعة الجمال وجنوداً نزلوا الى القبو واغترفوا تلك الصناديق وحملوها على البغال والجمال . ثم مضوا بها الى المدينة التي هرب منها صاحبنا من وجه الملك والتجار الذين نصب عليهم . وأوفى ما عليه من ديون وفرّق على الناس من كنوزه ما جعلهم كلهم أثرياء ، الى آخر الحكاية التي لا محل لسردها كلها .

وحكايات الف ليلة كلها من هذا الطراز الذي ليس في الوجود الأرضي أو الفلكي ما يماثله ، وليس فيه من فنون القصة ما يستهويك ، فلا مفاجأة إلاّ صدمتك بهجنتها واستحالة حدوثها ، وما من عقدة الاّ اخترع المؤلف لحلها أعجوبة من أعاجيب الخرافة كالأعجوبة المستحيلة التي ذكرناها . وفي كل ذلك لا تجد مغزى أخلاقيًّا أو أدبيًّا أو اجتماعيًّا اللهمّ إلاّ بعض قبائح ورذائل .

لذلك لم أفهم ما الذي استهوى قرّاء هذه السخائف حتى ترجموا الكتاب ، ولا أدري ماذا علقوا عليه . ولا أظنهم إلاّ مستخفو الأدب العربي الى جنب الأدب الهندي في كليلة ودمنه ، والأدب الفارسي في رباعيات الخيام .

والغريب أنه طبع في بيروت ومصر مراراً منقّحاً أو محذوفاً منه ما فيه من خلاعة وفحش . أما الطبعة التي قرأتها فكلها أغلاط مطبعية لا تكاد تفهم الأصل فيها مهما استعنت بالقرائن . فتبًّا لمن طبعها ، ولم يُعنَ باصلاح مسوّداتها بتاتاً .

لم يذكر في مقدمة الكتاب من ألفه وفي أي زمان كتب . ولكن القارىء يدرك من أول فصل فيه ان المؤلف عاش في مصر ، وربما عاش بعض حياته في بغداد لأن عباراته تدل على أنه مصري وأنه كان فيها في الزمن الأخير ، لأنه يجري على قلمه كثير من الاصطلاحات العامية التي نسمعها اليوم .

وأغرب ما فيه ذكر ساعة جيب . وساعة الجيب غير قديمة العهد ، لا أظنها ترجع الى أبعد من القرن السادس عشر . فذكر الساعة فيها يدل على أن الكاتب كان عائشاً في ذلك القرن أو بعده . وإلاّ فلعل الناشر أدخل الساعة في الحكاية من عنده ولم تكن مذكورة في الأصل ، ولعله حذف وغيّر وبدّل في الأصل كثيراً فأخرجه عن نصه الأصيل .

فهرس الجزء الثالث

من المجلد السادس عشر بعد المئة

١٣٥ العدم
١٣٦ ما يعرف وما لا يعرف
١٤٢ مصر : مهد الأمة الأولى والحضارة الأولى : للسير أرثر كيث
١٤٦ الخدمات الاجتماعية والعشائر البدوية : لوصفي زكريا المهندس الزراعي
١٥١ السرطان : منحة التدخين
١٥٢ العزلة في رأس الجبل : القادر على كل شيء : مناقشة بين صحفي وناسك
١٥٩ جريمة القانون : قضية تستوجب البحث
١٦٥ فراشة : قصيدة : عدنان مردم بك
١٦٦ وحي الصحراء : قصيدة : أماني فريد
١٦٧ لئلاّ ننسى : لخليل السكاكيني
١٧٤ نظرات في النفس والحياة : نظرات جوتا : ع . ش
١٧٧ خلود الحياة : في فلسفة إقبال : ترجمة محمدحسن الأعظمي والشيخ الصاوي شعلان
١٨٣ البترول في الشرق الأوسط : لوليم امين
١٨٨ فضائل الماسونية : لا حرية ، ولا إخاء ، ولا مساواة
١٩١ فوارق الأنوثة والذكورة وأسبابها ونتائجها
١٩٣ التسمم بالفيتامين
١٩٤ باب الزراعة والاقتصاد * الجراد وكيف يمكن التخلص من غوائله : عوض جندي
٢٠٠ باب المسائل وأجوبتها * الضمان الجماعي ، حكومة عالمية ، الحنو الوالدي
٢٠٣ مكتبة المقتطف * احسان لله وقصص اخرى . همس الايام . أسطورة الف ليلة وليلة

في مقتطف ابريل

مصنع التطور
أسباب اضطراب العالم
التسارع : رديف الجاذبية

صحفي بين الاجرام
الديموقراطية
بورصة الحب